# ديوان الشافعي

# ديـوان الشافعـي


شرحه وقدم له: يوسف سامي اليوسف

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣ عدد النسخ ١٠٠٠





طباعة وتنفيذ: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

تنضيد وإخراج: فادي الكاتب

تصميم الغلاف: فيصل حفيان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية، دمشق، ص،ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس: ٥٦١٣٢٤١

# ديوان الشافعي

الشرح والتقديم

يوسف سامي اليوسف

# المقدمة

## بقلم : يوسف سامي اليوسف

عندما انتصف القرن الثاني الهجري، توفي الإمام أبو حنيفة النعمان، وهو من أسس أول مذهب فقهي في الإسلام، ولقد كانت وفاته في بغداد، وفي أحد سجون الخليفة المنصور. ولكنْ، في تلك السنة نفسها (١٥٠ هـ = ٧٦٧ م) ولد في غزة، أو ربما في عسقلان التي هي إلى الشمال من غزة، وكلتاهما على الساحل الجنوبي لبلاد فلسطين، ولد طفل من قريش اسمه محمد بن إدريس الشافعي، وهو من سوف يُقيّض له أن يؤسس مذهباً فقهياً واسع الانتشار في العالم الإسلامي كله.

ويبدو أن إدريس بن العباس، والد الشافعي، كان قد جاء إلى غزة في عمل له، وهناك أدركته المنية، فترك زوجته وطفله يحاصرهما فقر عضوض. فما كان من المرأة إلا أن أخذت ابنها ورحلت إلى مكة، بلد زوجها، وأسلمت الطفل لأقربائه بغية إعالته والاعتناء به. وهناك أُدخل إلى الكتّاب ليتعلم القراءة والكتابة. وبعدما أنهى فترة التعليم الأولي هذه، رحل الشافعي إلى البادية حيث عاش مدة طويلة مع قبيله هذيل، يرحل إذا رحلت ويقيم إذا أقامت. ويبدو أن تلك المدة قد كانت طويلة حتى لقد جعلها بعض رواة الأخبار سبع عشرة سنة، والأرجح أنها دون ذلك بكثير. ولكن الرجل حين عاد إلى مكة كان قد أتقن اللغة العربية أيما إتقان، لأن هذيل أفصح العرب يومذاك.

وفضلاً عن اللغة العربية عاد الشافعي وهو يحفظ الشعر الهذلي كله عن ظهر قلب، بل ربما عاد وقد أصبح شديد الدراية بشعر العرب، أو لعله صار شاعراً منذ ذلك الحين، وبفضل اتصاله بهذيل المشهورة بشعرها الكثير.

وفـي مكـة لازم الحـرم والفقـهاء والخـبراء بشـؤون الديـن، وراح يتتلمـذ عليـهم ويتعلم منهم، فقد كان مغرماً بالمعرفة، ولهذا فإنه يمجد العلم كثيراً فـي أشـعاره. وقد أتيح له أن يقرأ كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس، بل استطاع أن يحفظه برمته عن ظهر قلب. وظل في مكة حتى قيض له من يدله على الإمام مالك نفسه في المدينة المنورة. ومن المعلوم أن ذلك الإمام هو مؤسس المذهب الفقهي الثاني بعد أبي حنيفة النعمان الذي أسس المذهب الأول.

ولكن الشافعي غادر المدينة المنورة بعد أن أقام فيها مدة طويلة، وسافر إلى العراق، ولا سيما إلى الكوفة وبغداد، حيث التقى بتلاميذ أبي حنيفة وأخذ عنهم الكثير. وتفيد بعض المصادر بأنه راح يطوف في الآفاق بعد ذلك، فزار مدينة الرملة الفلسطينية وأقام فيها برهة من الزمن، كما زار العديد من الأقطار والأمصار. ولقد انعكس هذا الترحال في شعره على نحو جلي. ولكنه عاد إلى المدينة المنورة ليتتلمذ من جديد على مالك بن أنس الذي ظل الشافعي يلازمه حتى توفي سنة ٧٩٥م.

وبعد وفاة مالك سافر الشافعي إلى اليمن ليعمل كاتباً لدى واليها، وتزوج وأنجب ابناً وبنتين. وفي اليمن اتهم الإمام بأنه يدبر انتفاضة ضد العباسيين، فاستدعاه الرشيد إلى بغداد، ولكنه أطلق سراحه بعدما ثبتت براءته، أو ربما بعد أن تأكد الخليفة من أنه ليس بالخطير. وعرض عليه أمير المؤمنين مبلغاً من المال، فقيل بأن الإمام قد رفض العرض، وقيل بل أخذ المال وانصرف.

وأقام في بغداد يعلم بعض التلاميذ الفقه هذه المرة، وكان الإمام أحمد بن حنبل واحداً من أبرز تلاميذه في عاصمة بني العباس التي كانت عاصمة الدنيا يومذاك. ومن المعلوم أن ابن حنبل هو مؤسس المذهب الفقهي الرابع، أو الأخير.

وظل الشافعي في تلك المدينة حتى قتل الأمين بعد فتنة كالحة دامية هوجاء، وذلك سنة ١٩٨ هـ، أو في الخامس من أيلول عام ٨١٣م. وربما كانت الفتنة

هي السبب الذي جعل الإمام يغادر العراق إلى مصر سنة ٨١٤ م، حيث أقام خمس سنوات. وفي الفسطاط، عاصمة مصر يومذاك، لازم الشافعي مسجد عمرو بن العاص، وأخذ الناس يتحلقون حوله ويتعلمون منه ويستفتونه ويأخذون حقائق الدين. وهناك ألف أبرز كتاب بين كتبه كلها، وهو كتاب (الأُم) الذي يندرج فيه جوهر مذهب الشافعي.

وفي سنة ٢٠٤ هـ = ٨١٩ م، توفي الإمام الشافعي في الفسطاط، وله من العمر ثنتان وخمسون سنة شمسية، وهناك من قال بأنه عاش أكثر من ذلك ببضع سنوات. ولا زال قبره معروفاً في مصر حتى يوم الناس هذا.

أما شعره فلم يجمع في ديوان خاص أثناء حياته، بل قيل إن معظمه منحول، ألصقه به بعض الناس بعد وفاته. وفي ظني أن هذا القول لا يستند إلى أي أساس رصين، إذ الصواب عندي أن بعض قصائده منحوله وبعضها الآخر من إنتاجه الخاص، فمن غير المستهجن أن ينتج الشافعي شعراً جيداً بعدما تربى في هذيل المشهورة بفصاحتها وشعرها.

وفي حدود علمي أن ديوانه لم يجمع إلا في القرن العشرين. ولكن أهم ما في الأمر أن دور النشر شديدة الاعتناء بجمع ديوان الشافعي وإصداره في هذه الأيام، أو خلال السنوات العشر الأخيرة. وربما جاز الزعم بأن اعتناء الجيل الراهن بشعر هذا الشاعر أشد من اعتنائه بشعر المتنبي الذي قيل فيه إنه صناجة العرب.

❖ ❖ ❖

كان الشعر العربي قد طرأت عليه تغيرات جوهرية عندما بدأ الشافعي بممارسة هذا الفن في أواخر القرن الثامن الميلادي، وذلك بسبب التغيرات الاجتماعية والتاريخية التي حتمها ذلك العصر نفسه. ولعل أول تغيّر يتصل بالجانب الاجتماعي في تلك الآونة أن يكون تمركز الشعر في المدن بدلاً من البوادي التي كان ينتشر فيها خلال العصر الأموي وما سبقه من عصور. ومما هو بدهي أن يختلف شعر المدن عن شعر البوادي من عدة جهات، إذ لقد تلاشى الكثير من عناصر القصيدة الجاهلية والأموية، ولا سيما الوقوف على الأطلال ووصف الناقة، وجميع موجودات الصحراء تقريبا. كما أن الألفاظ البدوية الخشنة لم يعد لها حضور كثيف في القصيدة الجديدة، اللهم إلا أن يكون ذلك على ندرة وحسب. وبذلك صار الأسلوب الشعري سلسا إلى حد بعيد، بحيث يتناسب مع أذن الإنسان الحضري الغارق في الترف المادي الذي توفره المدن للطبقة السائدة، التي هي الطبقة الأشد اهتماما بالشعر في تلك الأزمان.

كما أن ثمة عاملا آخر هو اتصال العرب بثقافات جديدة لم يكن لهم اتصال بها من قبل، ولعل الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية أن تكونا أهم ثقافتين اتصل بهما العرب في الطور الأول من أطوار الدولة العباسية. وربما جاز الذهاب إلى أن المدن، ولا سيما بغداد، كانت بوتقة تتصهر فيها العناصر البشرية ذات الثقافات المتباينة، الأمر الذي أثر عميق الأثر في الثقافة العربية جملة، وضمنها الشعر.

وأيا ما كان جوهر الأمر، فإن الشاعر في ذلك الجيل العباسي الأول، وهو جيل الشافعي أو زمنه، قد راح يميل إلى التصوير الفني، وكذلك إلى الاهتمام بالشكل والقضايا الأسلوبية، على نحو لم يعرف من قبل إلا لماما فقط. ولا ريب في أن رائد هذا التيار وفارسه الأكبر هو أبو نواس الذي يكبر الشافعي بعشر سنوات، والذي سوف يصبح أنموذجا يقتدي به أبو تمام، وهو من ينبغي أن يعد بحق والد الحداثة في العصر العباسي الأول. فلا ريب في أن أسلوب أبي تمام، الذي

يحاول أن يستنفر المحال، فينجح تارة ويخفق أخرى، هو الأساس الصخري الصلد الذي بني عليه أسلوب المتنبي، أو ذروة الشعر العربي التراثي كله.

وكان هنالك شاعر آخر أسهم أيما إسهام في إنجاز الأسلوب الجديد، وهو مسلم بن الوليد، الذي لقّبه الرشيد بصريع الغواني، وذلك لأنه وصف نفسه بقوله: ((صريع الغواني راقهنّ ورقنه)). ولقد كان مسلم هذا من جيل أبي نواس تماماً، أي من الجيل الذي يكبر الإمام الشافعي بقليل. ولقد ذكر بعض الرواة عن أبي تمام أنه كان يتخذ من ديوان النواسي وديوان مسلم صنمين شبههما باللات والعزّى، وأنه يعكف على التعبد لهما كما يعكف الوثنيون على أوثانهم.

وخلاصة الأمر أن حركة الشعر التراثي في تلك الآونة قد عمدت إلى تطوير أسلوبين متمايزين، فضلاً عن أساليب أخرى تتوسط بينهما. أما أولهما، وأكثرهما حداثة، فهو ذلك الأسلوب الذي يُعلي قيمة البديع، أو قيمة السمات الشكلية والتصويرية. وفي صلب الحق أن بشار بن برد قد كان أول من بدأ هذا الأسلوب المتأثر بأسلوب القرآن الكريم على نحو لا يخفى. وربما جاز الظن بأن ذا الرمة قد مهَّد لبشار هذا الدرب الذي أدى إلى نقلة نوعية مع أبي تمام. ولكن ذا الرمة وابن برد معاً قد ظلا يجنحان إلى اللفظة الحوشية الجافية والأسلوب الجاهلي الصحراوي الخشن، مما يخوّلك حق الذهاب إلى أن جهدهما في مضمار التصوير الفني لم يكن سوى المقدمة التي مهدت لسواهما، أي للجيل الذي جاء بعدهما إثْر بناء بغداد سنة ١٤٤ هـ = ٧٦٢ م.

وأما ثاني الأسلوبين فهو البسيط أو المباشر والخالي من كل زخرف، أو حتى من كل ميل إلى التفنن، إذ إنه قل أن يأخذ التصوير الفنيّ في الحسبان لأنه يهتم بالمحتوى دون أن يهتم بالشكل. وقد استحدث هذا الأسلوب شاعر من الكوفة اسمه إسماعيل بن القاسم، المشهور بأبي العتاهية. وأبو العتاهية هذا أكبر من الشافعي بعشرين سنة على وجه التقريب.

وربما شاركه في هذا الاستحداث شاعر آخر هو صالح بن عبد القدوس الذي صلبه المهدي سنة ٧٧٧م، أو زهاء ذلك. وبهذا الاتجاه الذي يفضل الكلمة القريبة أو المتداولة، سار الشافعي بعد أبي العتاهية، كما سار شعراء آخرون، بل إن ذلك الأسلوب المباشر والخالي من الصنعة وغريب الألفاظ، قد ظل محوراً في حركة الشعر العربي منذ أبي العتاهية وحتى يوم الناس هذا.

لا يخفى على قارئ ديوان الشافعي الكثير الطبعات في هذه الأيام، أن أسلوبه هو الأبسط بين جميع الأساليب الشعرية التي أنجزها الشعراء في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. بيد أن شعره لا يستند من حيث القيمة إلى جودة الأسلوب أو قوة الخيال، بل إلى زخم الحساسية التي أراها الينبوع الأول للشعر العظيم، وكذلك إلى صدق التجربة ومكابدة الحياة وهمومها المنهكة. إن خبرة الإمام بالحياة وبالناس هي ما يضفي النكهة والحيوية على شعره ويجعله صالحاً للقراءة حتى في زمننا الراهن الذي نقل الشعر نقلة لم تألفها الأزمنة السالفة على الإطلاق.

ففي الحق أن هذا الشاعر يشكو مرَّ الشكوى من الناس ومن الزمن الفاسد، أي من المجتمع المتنكر للقيم الإنسانية، فتراه كثيراً ما يصرّح بأن العزلة هي السبيل الوحيد لاجتناب أذى الناس. وربما كان الشافعي أول شاعر يذكر الوحدة والعزلة في شعره على نحو جهري:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة
وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
فاهرب بنفسك، واستأنس بوحدتها
تبقى سعيداً إذا ما كنت منفردا

ولئن كان الإمام هو قائل هذين البيتين حقاً فإنه بتفضيله للكلاب على البشر يشبه شوبنهور، الفيلسوف الألماني الذي فضّل قطّته على أي إنسان.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الإمام كثيراً ما يشير إلى موضوعة الوحدة أو العزلة في شعره، مما يدل على أن الغربة الاجتماعية قد ترسخت في تلك الآونة بسبب تضخم المدن. ومما يحتاج إلى التنويه به في هذا السياق أن المعري سوف يتخذ من موضوعة الوحدة أو العزلة محوراً كبيراً من محاور شعره، بل إنه سوف يعتزل الناس اعتزالاً إجرائياً. وحبذا الإشارة إلى أن المعري يكتب بأسلوبين بينهما فرق شاسع البون. أما أولهما فهو مصطنع ويجنح إلى اللفظية، أو إلى الكلمات الوعرة الغريبة، وهذه هي المثلبة الأولى وربما الوحيدة في شعر المعري. وأما الثاني فهو البسيط السهل المباشر العاري من الصنعة، أو من البديع، والجانح إلى الكلمة المألوفة المتداولة بين الناس في الحياة اليومية. وهذا الأسلوب الأخير يتأسس على المبدأ الذي يحكم شعر أبي العتاهية والإمام الشافعي وسواهما من الشعراء الميالين إلى البساطة في اللغة، واجتناب الغلو في الشكل، والبلوغ إلى فؤاد السامع، أو إلى ذهنه، على نحو مباشر أو فوري.

ويتضجر الشافعي كثيراً من الأيام والدهر والناس وسوء الأخلاق في مجتمعه، وهذه موضوعة سوف يشاركه فيها المتنبي وسواه. ولكن الشافعي كان معتدلاً في شكواه، أما المتنبي فسوف يتطرف كثيراً. ولعل في الميسور الذهاب إلى أن الإمام هو من ألهم أبا تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري ذلك الميل إلى ذم الدهر أو العصر، أي ذم المجتمع. بجملة بنيته، بل ذم الدنيا والنظر إليها بوصفها جيفة وحسب. يقول الشافعي:

لم يبق في الناس إلا المكر والملق
شوك إذا لمسوا، زهر إذا رمقوا
فإن دعتك ضرورات لعشرتهم
فكن جحيماً لعل الشوك يحترق

إن هذه الصورة الفنية البسيطة القريبة التي تجعل الناس زهورا إذا ما عرضوا على البصر، وأشواكا إذا ما صاروا برسم اللمس، تنطوي ضمنا على دعوة إلى ترسيخ المسافة بين الأنا والآخرين، أي هي تضمر الميل إلى الوحدة أو إلى الاعتزال، وتنطوي كذلك على الاغتراب، أو على نفور الروح من الحياة في المدن الكبرى التي لا تمارس على الإنسان سوى النفي والتقوقع في داخل جلده الخاص. فالمدن الكبرى دوما منحطة شائخة، ولكنها تسربلها على الدوام أناقة أو وسامة مصطنعة، بل لحائية لا شأن لها سوى إخفاء ما يستتر تحتها من بؤس وشقاء.

ولقد عبر الإمام عن هذا الاغتراب المريع بقوله:

تنكــــرت البــــلاد ومــــن عليــــها
كــأن أناســـها ليســـوا بنـــاس

وهذا مما يذكر بقول امرئ القيس في رائيته المشهورة:

لقـــد أنكرتنـــي بعلبـــك وأهلـــها
ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

أن تتنكر لك البلاد ومن فيها من بشر، حتى لكأن الناس ما عادوا بشرا، فهذا شعور بالغربة قاضم فاتك مرير.

ويقول في الزمان:

محـــن الزمـــان كثـــيرة لا تنقضـــي
وســـــروره يـــأتيك كالأعيـــاد
ملـــك الأكـــابر فاســـترق رقابـــهم
وتـــراه رقـــاً فـــي يـــد الأوغـــاد

ويقول في الموضوع نفسه:

نعيـــب زماننـــا والعيـــب فينـــا
ومـــا لزماننـــا عيـــب ســـوانا
وليـــس الذئـــب يـــأكل لحـــم ذئـــب
ويـــأكل بعضنـــا بعضـــاً عيانـــا

فليس الزمان شيئاً سوى الناس الذين يعيشون فيه، ولئن فسد الزمان فهذا يعني أن البشر هم الذي فسدوا. أما البيت الأخير ففيه إشارة واضحة إلى مقولة (الإنسان ذئب الإنسان) التي ذكرها الشاعر اللاتيني بلاوتس في مسرحية له عنوانها (الحمير).

وأما الدنيا فهذه هي صورتها في عين الإمام الخبير بشؤون الحياة:

ومـــا هـــي إلا جيفـــة مســـتحيلة
عليـــها كـــلاب همـــهن اجتذابـــها
فطوبـــى لنفـــس أولعـــت قعـــر دارهـــا
مغلّقـــة الأبـــواب، مرخـــى حجابـــها

لا أدري ما إذا كان الشافعي قد استعار هذا المعنى من المتصوفة أم أن المتصوفة قد استعاروه من الشافعي. ففي الحق أنه المبدأ الأول للتصوف الزاهد، إذ لقد اعتاد أهل هذا الصنف من أصناف الصوفية أن يقولوا: (الدنيا جيفة وطلابها كلاب)، وذلك هو ما يقوله المقبوس الأخير بوضوح.

ولعل في الميسور أن أجزم بأن الإمام الشافعي متأثر بأبي العتاهية في هذا كله. وعندي أن أبا العتاهية شاعر قل نظيره في تاريخ الشعر بأسره. فهو يحشد مفارقة لا يحشدها سواه: لغة لحائية وموضوعات لبابيه، أو أسلوب مباشر بسيط وموضوع يتمركز في سويداء قلب الحياة. ولا ريب في أن قدرته على تزويد قصائده بشيء من التلحين الداخلي أن تكون عاملاً من أهم العوامل التي جعلت شعره مقبولاً عند متذوقي الشعر. وهذه سمة لا تتوفر لشعر الإمام الشافعي بتاتاً. والأهم من ذلك كله أنه اتخذ من الموت موضوعة محورية لشعره، فكان بحق أول شاعر وجودي في تاريخ الأدب العربي بأسره.

ولئن كان أبو العتاهية يسير على نهج فحواه توظيف الكلمة المتداولة التي يفهمها عامة الناس، فإنه، مع ذلك، يختار ألفاظاً ناعمة لينة ذات جرس موسيقي، ولها وقع في النفس المتلقية، بل إن لها شيئاً من الفتون أحياناً، ولا سيما حين يتغزل بالنساء، إذ لا ريب في أنه شاعر بالطبع أو بالجوهر. أما الشافعي فليس له إلا اليسير من هذه السمات الفنيّة. وهذا مما يدفع المرء إلى القول بأنه شاعر بالعرض وحسب. ولا يضعه بين الشعراء سوى قدرته على استبار بعض من جوانب الحياة، أو من التجربة البشرية، ولا سيما العلاقة مع الآخر. والجدير بالذكر أن الأقدمين قد أدركوا أن شعر العلماء هو دوماً إنجاز متواضع، أو لعله أن يكون شعراً من الدرجة الثانية.

ويبدو أن الشافعي نفسه قد أدرك ما فحواه أن شعره لا يرقى إلى مستوى شعر الفحول، وربما كان قد استهدف التنويه بهذه الحقيقة حين قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد

فربما كانت هذه إشارة منه إلى أنه ليس واحداً من شعراء الدرجة الأولى، أمثال لبيد العامري أو سواه. ومما يدعو إلى التساؤل، بل إلى الدهشة، أن تكون للشعر هذه الجاذبية القوية، بل هذه السلطة التي تحتم على الكثير من البشر في كل زمان ومكان أن يعانوا قول الشعر. فالشافعي الشديد الاهتمام بفقه الدين، كان عليه أن يكرس شطراً من جهده لهذا الفن الذي من شأنه أن يجتذب بعض الناس، بينما ينفّر بعضهم الآخر.

فهل من مفكر كبير يملك أن يكشف لنا عن سر هذه السلطة الآمرة المستبدة التي يتسلط بها الشعر على بعض النفوس؟ بل هل من مفكر يملك أن يبين لنا لماذا رافق الشعر الإنسان طوال التاريخ؟ أليس مما هو صادق تماماً أن الشعر برهة جوهرية أو عنصر تركيبي في طبع الموجود الروحي، أو في بنية ماهيته الدائمة؟ فهل هنالك من يملك القدرة الكافية على أن يبين حقيقة هذا الأمر الذي من شأنه أن يحث الذهن البشري على التساؤل والاستفسار.

لعل السمة الأبرز بين السمات الشخصية التي يتمتع بها الإمام الشافعي أن تكون التزامه بمكارم الأخلاق، أو حصراً بالشهامة التي هي النقيض المباشر للخسة أو للنذالة. وفي صلب الحق أن أخلاق الرفعة هي مبدأ الشاعر طوال حياته. وهذا ما يتيسر للقارئ أن يستخلصه من ديوانه حصراً، كما قد يتيسير له أن يلاحظ التزام الإمام بالطيبة وعزة النفس على نحو ناصع ومتواتر. ولا بأس في هذا المقبوس الذي يبيّن حقيقة هذه السمة الذاتية أو الشخصية.

ولو أنني أسعى لنفعي وجدتني
كثير التواني للذي أنا طالبه
ولكنني أسعى لأنفع صاحبي
وعار على الشبعان إن جاع صاحبه

فمما هو جلي ههنا أن الرجل شهم حتى آخر حدود الشهامة. ولكن ثمة مفارقة في هذا المقام. إذ لقد تبدى الشافعي سابقاً وكأنه يكابد العلاقة مع الآخر، أو ربما مع الناس أجمعين. ولكنه يتبدى في هذا الموضع وكأنه يضحي بنفسه في سبيل الآخر، أو التزاماً بمبدأ الإيثار واجتناب الأثرة والأنانية. ومع ذلك، فإنني لا يساورني أدنى ريب بصدقه في الحالين. فالآخر متعب، من جهة، ولكنه لا غنى عنه بتاتاً، من جهة أخرى، إذ لا يملك الإنسان أن يصير إنساناً، بأي حال من الأحوال، إلا إذا عاش بين الآخرين. ولئن جاز القول بأن الإنسان يفترس الإنسان، فلا يجوز، في الوقت نفسه، إلا الذهاب إلى أن الإنسان ينتج الإنسان أيضاً.

ثم إن لك أن تلاحظ ميل الشاعر إلى المحبة في هذا المقبوس الصغير الذي قاله وهو في مرض الموت:

سأصبر للحمام، وقد أتاني
وإلا فهو آت بعد حين

وإن أسلم يمت قبلي حبيب
وموت أحبتي قبلي يسوني

يا له من شعور نبيل هذا الشعور الذي يندرج في البيت الثاني من المقبوس الأخير. فالشاعر يفضل ألا يتأجل أجله، لأنه إذا نجا من المرض الراهن، فإن واحدا من أحبته قد يموت قبله، وهذا حادث سوف يسوؤه كثيرا جدا، أو يحزن روحه على نحو فاجع مرير.

وها هو ذا يقول في موضع آخر:

يا لهف نفسي على مال أفرقه
على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما ليس عندي لمن جنس المصيبات

أرأيت إلى هذه الشهامة التي يزعجها أن تشاهد أهل المروءة يطلبون منه مالا فلا يستطيع أن يلبي لهم طلبا لأنه فقير؟ أرأيت إليه وهو ينظر إلى اعتذاره لهم بوصفه صنفا من أصناف المصائب؟ إن عجزه عن التلبية او الإغاثة هو أمر مقيت عنده. فلكم هو نبيل هذا الإمام الطيب الملتزم بمبدأ الخير، بل بالناموس الأخلاقي كله. فمما يندعن كل ريب أن الإنسان لا يصير إنسانا إلا بقدر ما يحوز من مكارم الأخلاق، ولا سيما الطيبة التي هي خلاصة الفضائل بأسرها.

ومما لا بد له من أن يكون ناصعا لكل من قرأ ديوان الشافعي أن شطرا كبيرا من شعره يتمحور حول موضوعة الصلة بالآخر، أو العلاقة بالناس، سواء أكانت علاقة سلبية أم إيجابية، علاقة ترى الإنسان جحيما أو روحا تستحق التكريم. بيد أن شطرا آخر من شعر الشافعي يتمحور حول صورته التي رسمها لداخله حصرا. فمما ينبغي التأكيد عليه أن الشافعي شديد الاعتداد بنفسه دون أن يكون متكبرا أو خارجا عن المناقب الحميدة. إنه يكرم نفسه ويعتد بكرامته الشخصية، ولعله أن لا يأبى شيئا قدر ما يأبى الذل والهوان. فها هو ذا يقول:

همتي همة الملوك ونفسي

نفس حر ترى المذلة كفرا

إنه الالتزام بالشرف وبمبدأ الحرية التي يقدمها الشاعر من حيث هي ضد الذلة والخنوع أمام كل ما يسلب الكرامة. أن يصير الذل في نظر الشاعر كفراً قد يفضي إلى جهنم، ذاك هو منتهى الالتزام بمبدأ الحرية بوصفها العنصر المركزي أو الينبوعي في الماهية البشرية أو الروحية.

ولكي لا يذل أو يصير رقاً في أيدي الأوغاد، فقد توجب عليه أن يلتزم بمبدأ القناعة. ولهذا السبب الأخلاقي حصراً، كانت مقولة القناعة واحدة من الموضوعات الكبرى التي تؤلف قوام شعره. فها هو ذا يقول:

غنـي بـلا مـال عـن النـاس كلـهم

وليس الغنى إلا عـن الشـيءِ لا بـه

ويقول:

وإذا مـا قنعـتُ بـالقوت عمـري

فلمـاذا أزور زيـداً وعمـرا

هكذا تحتم المروءة أن تقنع بما لديك لكي لا تضع نفسك تحت سيطرة اللئام. وهذه، دون ريب، برهة في الأخلاق الفردية التي مجدها الناس في كل زمان ومكان. فمما هو شديد النصوع أن شعر الإمام لا محتوى له سوى الأخلاق الحميدة وحدها والمنافحة دونها وذم أضدادها وكل ما يسلبها. فالشاعر شديد الاعتناء بالقيمة الروحية للفرد، وبفضل هذه المزية كانت لشعره قيمة أدبية كبيرة، وراح الناس يهتمون به ويقرأونه كثيراً، مع أنه لا يتمتع بسورة الخيال والتصوير التي يتمتع بها شعر الفحول من الشعراء. ففي ميسور المرء أن يزعم بأن الحساسية، أو قدرة الذات على تلمس التجربة واستشعارها، هي التي صنعت المزية لشعر الإمام الشافعي، وليس أي عنصر داخلي آخر. وهذا يعني أن روح الرجل حساس إزاء كل ما يغرّب الإنسان، أو يشيؤ شخصيته ويحيلها إلى هلام.

ناصع، إذن، أن الإمام الشافعي قد تمكن من ترسيخ بعض القيم الإنسانية في شعره الصغير الحجم والعظيم المقدار. وربما كانت معاملة الآخر بإحسان واحدة من أبرز هذه القيم اللطيفة أو النبيلة. يقول:

لما عفوت ولم أحقد على أحد

أرحت نفسي من هم العداوات

إنـــي أحيـــي عــدوي عنــد رؤيتـــه
لأدفـــع الشـــر عنـــي بالتحيـــات

ويقول في موضع آخر:

وليـــس كثـــيرا ألـــف خـــل لعـــاقل
وإن عـــــدوا واحـــــدا لكثـــــير

كما يقول أيضا:

يخـــاطبني الســـفيه بكـــل قبـــح
فـــأكره أن أكـــون لـــه مجيبـــا
يزيـــد ســـفاهة فـــأزيد حلمـــا
كعـــود زاده الإحـــراق طيبـــا

إنها أخلاق الإنسان الحليم الكريم، الذي ينأى بنفسه عن مجابهة الشر بالشر، بل يلتزم بمبدأ الرفعة، أو حتى بمبدأ السكينة أمام السفاهة والحطة، وذلك ابتغاء اجتناب المهاترات وإضاعة الجهد في السباب والشجار.

ولا يخفى على أحد أن هذا القول جد بسيط حتى ليشبه النصائح التي توجه للأطفال، ولكن تطبيقه الإجرائي أو التنفيذي يحتاج إلى قامة باذخة شاهقة، إذ لا يطيق ذلك إلا من كان حليما بالطبع لا بالعرض.

ثم إن حب الإمام للمعرفة، وهي التي يسميها العلم، جريا على عادة الأقدمين، هو موضوع بارز في شعره. فلا ريب في أن الإمام قد سلخ عمره في السعي وراء المعرفة، ولا سيما معرفة الدين. ولهذا السبب لا بد للمعرفة

من أن تكون قيمة جُلّى في نظر رجل هذه هي حاله، وهذا هو همه الذي يستهلك طاقته أو معظمها. يقول:

العلم مِن فضله لمن خدمه
أن يجعل الناس كلهم خدمه

ويقول كذلك في موضع آخر:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه فسائل كل من عنده فهم

وكانت عادة الأقدمين أن يسافر المتعلم طلباً للمعرفة، وأن يتصل بالمشاهير من أهل العلم أينما كانوا. بل إن من تقاليد الناس في الأزمنة الغابرة ألا يعدّوا الرجل الذي لم يرحل في طلب المعرفة عالماً كبيراً. فالقعود عن ذلك في نظرهم مثلبة كبيرة لا تقبل التسويغ. ومما هو ناصع في ديوان الشافعي أنه كان يحب السفر حباً جماً، وأنه قد سافر كثيراً بالفعل. وها هو ذا يحثك على السفر لتنجو بنفسك من التخشب أو من التأسن:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة، فدع الأوطان واغترب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن ساح طاب، وإن لم يجر لم يطب

ويقول في موضع آخر:

تغـرب عـن الأوطـان فـي طلـب العـلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفـــرجُ هـــمّ واكتســـاب معيشـــة
وعلـــم وآداب وصحبـــة مـــاجد

ومما هو بدهي أن هذا القول لا يخرج إلا من روح إنسان مارس السفر وعرفه حق المعرفة. والأهم من ذلك أنه أحبه كثيراً، فراح ينصح الناس بالسفر أو بالترحال، وذلك لما يتمخض عنه من فوائد جليلة المقدار. ولعل العبارة الأخيرة في البيت الثاني من المقبوس الأخير، أقصد (صحبة ماجد) أن تلفت الانتباه ولو قليلاً. فهذه الصحبة هي فائدة من فوائد السفر. وهذا يعني أنه يضع الصداقة، أو العلاقة مع الآخر، في سلم القيم الإنسانية الكبرى. ولقد أحسن صنعاً حين فعل ذلك، إذ لا ريب في أن الإنسان منسوج من العلاقة. وما الاغتراب إلا لأن المرء يخفق في تأسيس اتصاله بالعالم أو بالآخرين.

وبذلك يتضح لك أن رفض الشافعي للناس، وكذلك لجوءه إلى الوحدة أو إلى العزلة، ليسا من صميم شخصيته، وإنما هما عرضان حتمتهما طبيعة تجربته الخاصة التي لا بد لها من أن تفرز شيئاً من العدواة والخصام. فهو يؤسس مذهباً دينياً، وكل من أسس مذهباً، أكا ن دينياً أم غير ديني، لا بد له من أن يتعرض للمشاكسة والمنافسة. وفضلاً عن ذلك، فإن المدن الكبرى التي عاش فيها الشافعي ردحاً من الزمن، من شأنها أن تنتج بشراً أنانيين لا يعنون كثيراً بغير مصالحهم المادية. وهذه واقعة تسهم أيما إسهام في إنتاج الاغتراب.

وأيّاً ما كان جوهر الشأن، فإن المرء لا يسعه إلا أن يجزم بأن الشافعي شديد الطيبة، ولا يكنّ للناس إلا كل مودة وإخاء.

ليس من اليسير أن تكشف الدراسات الأدبية عن الآثار التي تركها الأسلاف على شعر الإمام الشافعي، كما أنه ليس من اليسير كذلك أن تكشف عن تأثير الشافعي في الشعراء الذين جاؤوا بعده. ولئن حاول المرء أن يفعل ذلك، فإنه يحتاج إلى مجلد قائم بذاته. وذلك يعني أن هذه المقدمة لا تتسع لهذا الإنجاز الشاسع المنداح.

من المؤكد أن عدداً كبيراً من الشعراء اللاحقين قد تأثروا بالشافعي إلى هذا الحد أو ذاك، ولكن أبا الطيب المتنبي كان الأكثر استفادة من شعر الإمام. والغريب أن الدارسين والمنقبين الذين نقبوا في (سرقات المتنبي)، وهي ما نسميه اليوم بالتناص، لم يفطن أي منهم للشافعي بوصفه مصدراً من مصادر أبي الطيب. فلم يتنبه الحاتمي لهذا الأمر، كما لم يتنبه له ابن وكيع ولا الصاحب ابن عباد. والأهم من ذلك كله أن القاضي الجرجاني الذي وضع في القرن الرابع الهجري، أو العاشر الميلادي، أحسن كتاب عن الشاعر العملاق، وهو (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، قد فاته تأثر أبي الطيب بالشافعي، مع أنه قد كرس نصف الكتاب (لسرقات) ذلك الشاعر.

أما كتاب (الصبح المنبي عن حقيقة المتنبي) للشيخ يوسف البديعي الدمشقي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري، أو السابع عشر الميلادي، فقد جاء ليكون بمثابة تلخيص لجميع الكتب التي خصصها السابقون للبحث في شؤون المتنبي. ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدت معظم (سرقات المتنبي) معروضة فيه على نحو مفصل، ولكنك لن تجد أيما ذكر لتأثير الشافعي في المتنبي، مع أن بين الشاعرين تشابهاً لا يخفى البتة على كل من قرأ أشعار الرجلين كليهما بشيء من الأناة. ولعل السبب في ذلك أن ديوان الشافعي لم يكن قد جمع طوال الأحقاب التراثية كلها، ولا سيما في القرن الرابع الهجري يوم احتدمت المعركة النقدية حول أبي الطيب. فلقد كان شعر الشافعي منثورا في بطون الكتب هنا وهناك. ومما هو معلوم جيدا أن أبا الطيب قد كان قارئا منهوما وخبيرا بالكتب الأدبية وغير الأدبية.

وفي صلب الحق أنه ما من شاعر كبير بحجم المتنبي إلا وجذوره ضاربة في موروث أمته، فضلاً عن موروث الأمم الأخرى. ومن المحال أن يكون الأمر خلاف ذلك، إذ ما من كاتب إلا وهو ينبع من ينابيع لا تحصى، تماماً كالنهر الكبير الذي لا يتضخم إلا لكثرة ما يرفده من روافد. وهذا يعني أن التأثر حتم أو قدر لا بد منه، وأنه ليس عيباً، بل شرف، إذا ما التزم المرء بقواعد الشرف. وتقضي هذه القواعد بألا يأخذ المتأثر المحتوى كما هو تماماً، بل عليه أن يغيره ويغنيه، فيفعل كما تفعل النحلة التي تحيل الرحيق إلى عسل، أو كما يفعل القمر الذي يجعل نور الشمس نوراً من صنف آخر. فلئن أخذ المعنى كما هو سمينا ذلك سرقة، ولئن أعاد خلقه أو إنتاجه سميناه تناصاً.

ولا مراء في أن المتنبي الذي صدر عن ألف مصدر ومصدر، قد استطاع بالفعل أن يخلق هويته الخاصة، أو صباغه الذي يلونه بلون ليس لسواه. وههنا بالضبط يكمن شرفه العظيم، إذ ما من شاعر ذي شأن سوى ذاك الذي يتمتع بهوية تخصه وحده دون سائر الناس.

ولئن حاولت أن تتقرى ما أخذه المتنبي من الشافعي بطريقة مباشرة، أي على هيئة سرقة وليس على هيئة تناص، لوجدته قليلاً جداً، بل لعله أن يكون أقل من الطفيف. ولكن لا بأس في تثبيت هذه المادة الضئيلة من الناحية الكمية. يقول الإمام:

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول أبو الطيب:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ولعل مما هو شديد النصوع أن بين البيتين تشابهاً لا يخفى على أحد. ولكن بيت أبي الطيب أقوى وأجود بكل تأكيد.

ويقول الشافعي:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناس أموات

أما المتنبي فيقول:

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء

ناصع أن ثمة تقارباً بين البيتين لا يخفى حتى على تلاميذ المدارس.

ويقول الشافعي:

كيف الوصول إلى سعاد ودونها
قلل الجبال ودونهن حتوف

ولكن المتنبي يقول:

أما الأحبة فالبيداء دونهم
يا ليت دونك بيداً دونها بيد

ومع أن التشابه واضح في هذا الموضع، فإن ثمة مسافة تفصل بين الاثنين، وإن تكن قصيرة. ويقول الإمام:

ستسترجع الأيام ما وهبتكم
ومن عادة الأيام تسترجع القرضا

فيقول أبو الطيب:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا
فيا ليت جودها كان بخلا

ومما هو ليس بخاف قط أن الشطر الأول من بيت المتنبي مأخوذ من (أو مشترك مع) بيت الشافعي بكل نصوع.

وأخيراً، يقول الإمام:

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم
فخير تجارات الكرام اكتسابها

ويقول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومما هو جلي أن أبا الطيب لم يأخذ من سالفه سوى الشطر الأول من هذا البيت الأخير، أما الشطر الثاني فقد استولده من سليقته الخاصة، وإن كان من طبيعة هذا الشطر الأول أن يوحي بالشطر الثاني.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن ما أخذه المتنبي في هذه المواضع الطفيفة ليس بالسرقة الخالصة، لأنها لا تخلو من جهد يبذل ابتغاء إعادة الصياغة التي قد تفضي إلى الإثراء والترصين. ولكن أهم ما في الأمر أن أبيات المتنبي، وهو الشاعر الفحل المطبوع، أقوى بكثير من أبيات الشافعي ذات الأسلوب الساذج الخالي من كل نزعة شكلية تقريباً. وإن لك أن تتأمل هذين البيتين لكي تتأكد من صحة هذا القول:

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فمما لا يخفى على اللبيب أن البيت الثاني مسبوك سبكاً لا يبذه أي سبك، فجاء تجسيداً للجزالة والرصانة ورسوخ البنيان. وهذه سمة لا تتوفر لبيت الشافعي الراهن.

لئن كان التأثر المباشر أو الفوري هو وحده المقصود حينما يقال بأن المتنبي قد تأثر بالشافعي، فإن الأبيات القليلة الآنفة الذكر هي كل ما يربط بين الشاعرين. ولكن ما هو أهم من ذلك بكثير يتلخص في أن ثمة عنصراً مشتركاً بين مناخي الرجلين. وعندي أن النقد الموازن، أو نقد التناص، ينبغي أن ينصب على اكتشاف التشابه القائم بين المناخات، بل إن كل دراسة جديرة بالاحترام هي تلك التي تدرس المناخ، أو ما هو نصف جهري ونصف سري. أما النقد الموضعي فلا ينم

إلا عن ضيق أُفق، أو عن ذهن لا تزيد مساحته عن مساحة سم الخياط. ففي صلب الحق أن التأثر الجوهري هو الاشتراك ببعض السمات الماهوية، أو أقله بعنصر من العناصر التي تؤلف الهوية نفسها.

ولا بد من توضيح هذا المذهب بمثال أو بمثالين.

يقول الشافعي:

عنـــدي يواقيـــت القريـــض ودره
وعلـــيّ إكليـــل الكـــلام وتاجـــه

ويقول أيضاً:

ولـــولا الشـــعر بالعلمـــاء يـــزري
لكنـــت اليـــوم أشـــعر مـــن لبيـــد

أما أبو الطيب فيقول:

أنـا الـذي نظـر الأعمـى إلـى أدبـي
وأسـمعت كلمـاتي مـن بـه صمـم

ويقول في موضع آخر:

ومـا الدهـر إلا مـن رواة قصـائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ومما قد لا يخفى على المتأني أن المناخين متقاربان أو متشابهان، هذا إن لم يكونا مناخا واحدا، حتى وإن لم يكن المتنبي قد استمد هذه البرهة من الشافعي حصرا. ففي الحالين يعتد كل من الرجلين بشعره أو بموهبته الشعرية. ولكن ما يستحق التأكيد في هذا المقام هو أن بيتي المتنبي أقوى من بيتي الشافعي دون أدنى ريب.

وإذا ما تقريت الديوانين جيدا، أعني ديوان الإمام وديوان أبي الطيب، فإنك ستجد المتنبي يشبه سلفه كثيرا من حيث الاعتداد بالنفس. وهذا أمر مشهور عن أبي الطيب الشديد التطرف في النرجسية. فربما أقنعتك قراءتك لديوانه بإمعان بأنه مصاب بالخنزوانة التي هي جنون العظمة. ولقد بلغ به نازع الازدراء إلى حد الزعم بأن كل ما خلق الله وما لم يخلق يعد محتقرا في همته كشعرة في مفرق شعره. ولا يخفى على قارئ ديوانه أنه كثير التنفج، بل إن تنفجه يصل إلى مستوى العنجهية التي تلامس تخوم الغوغائية في بعض الأحيان. وإليكم هذا البيت كمثال على ما أقول:

وكيف لا يحسد امرؤ علم
لـه علـى كـل هامـة قـدم

فلكم هو ممجوج وسخيف، بل ضعيف، هذا التمادي المتطرف! هل يجوز لأي إنسان أن يزعم بأن قدمه تعلو كل رأس في هذه الدنيا؟ أليس من الطبيعي الآن أن يذهب العاقل إلى أن خصوم المتنبي محقون، شأنهم في ذلك شأن أنصاره؟ وهذا هو بالضبط موقف الجرجاني حيث توسط بين الطرفين وكأنه قاض يعالج مشكلة حقوقية.

وعلى أية حال، دعنا نقرأ معا هذا البيت الشعري اللافت للانتباه:

همتـــي همـــة الملـــوك، ونفســـي
نفــس حــرّ تــرى المذلــة كفــرا

ولو لم يكن قد ورد ذكره في السطر الأول من هذه المقدمة لقلت: لا بأس في التساؤل عن قائلة. ألا يخطر في البال للوهلة الأولى بأن صاحبه هو المتنبي وليس سواه؟ ولكن هذا البيت للشافعي حقاً. ومما هو واضح أن التشابه كبير بينه وبين الكثير من أبيات المتنبي، بل قد لا أبالغ إذا ما زعمت بأن هذا البيت حصراً يلخص شخصية المتنبي، أو يعرض لبابها وجوهرها، مع أنه لم يقله بل قاله سواه.

وفي الميسور أن تجد أمثلة كثيرة على هذا المعنى في شعر المتنبي. خذ هذا البيت مثلاً:

أبـــداً أقطـــع البـــلاد ونجمـــي
فــي نحــوس وهمتــي فــي صعــود

وكذلك هذا:

غثاثــة عيشـــي أن تغـــث كرامتـــي
وليـــس بغـــث أن تغـــث المـــآكل

ومما لا تخطؤه العين حين يقرأ المرء شعر الإمام أن ذلك الشعر كثيراً ما يشير إلى أنه شديد الاعتداد بنفسه، ولكن النزعة الدينية قد هذبت الشافعي فخلصته من الإفراط في هذا الأمر. يقول الإمام:

علـــيَّ ثيـــاب لـــو تبـــاع جميعـــها
بفلـس لكـان الفلـس منـهن أكـثرا

فيــهن نفــس لــو تقــاس ببعضــها
نفـوس الـورى كـانت أجـل وأكـبرا

ولعل مما لا يخفى على الخبير بشعر المتنبي أن روحه ترخم في البيت الثاني بكل تأكيد. وهذا يعني أن الرجلين يشتركان في عنصر من العناصر التي تدشن الهوية، ولكن شريطة أن يكون الشافعي هو قائل البيتين الأخيرين.

ولا بأس في مثال آخر. يقول الإمام:

ولــــولا خشـــية الرحمــــن ربــــي
حســـبت النـــاس كلـــهم عبيـــدي

وفي الحق أن الشطر الثاني من هذا البيت أليق بالمتنبي منه بالشافعي، الذي يعلن في بيت سابق لهذا البيت الأخير أنه أشجع من كل شجاع إذا ما حارب. ومن شأن هذا الزعم الأخير أن يذكر المرء بأقوال كثيرة للمتنبي لها صلة بالفحوى نفسه.

ومما هو جدير بالتنويه كذلك أن حقد المتنبي على الملوك له مثيل صريح في شعر الإمام. يقول الأخير:

إن الملـــوك بـــلاء حيثمــــا حلــــوا
فــلا يكـن لـك فــي أبوابـهم ظـل
مــاذا تؤمــل مــن قــوم إذا غضبــوا
جـاروا عليـك، وإن أرضيتـهم ملـوا
فاســتغن باللــه عــن أبوابــهم كرمــاً
إن الوقـــوف علــــى أبوابــــهم ذل

أما المتنبي فكان في صدر شبابه ثورة صريحة على الملوك الذين يزدريهم بتطرف هو صفة من صفاته الدائمة. يقول أبو الطيب:

ميعـــاد كـــل رقيـــق الشـــفرتين غـــداً
ومـــن عصـــى مـــن ملـــوك العـــرب

فهو يبتغي جهراً أن تركع جميع سلاطين الأرض، من العرب والعجم والديلم والروم والفرنجة، تحت قدميه، حتى كأنه وثن يستحق العبادة والتقديس في هذه الدنيا التي يزدريها لأنها تتمرد عليه، ولا تعنو لسلطته المطلقة.

وها هو ذا يقول في موضع آخر:

أيملـــك الملـــكَ والأســـياف ظامئـــةٌ
والطـير جائعـة لحـمٌ علـى وضـم
مـن لـو رآنـي مـاءً مـات مـن ظمـأ
ولـو عرضت لـه فـي النـوم لـم ينـم

ومعنى هذين البيتين أن الذين يملكون الملك في هذا العالم هم من الهزال بحيث لا يزيدون عن كونهم لحماً على وضم، أي على الخشبة التي يستعملها اللحام لتقطيع اللحم. ثم إن الملوك لو رأوه ماءً لماتوا عطشاً، ولو عرض لهم في نومهم لجفاهم النوم. ومع أنه أخفق في ثورته المسلحة وأودع السجن في حمص لمدة سنتين (٣٢٢ ـ ٣٢٤ هـ)، فإنه لم يكف عن تحديه للملوك ولا عن احتقاره لهم. فها هو ذا يقول في واحدة من أجود قصائده الساخطة:

ولا تحســـبنَّ المجـــد زقّـــاً وقينـــة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريـب أعنـاق الملـوك، وأن تـرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

ثم يضيف في هذه القصيدة نفسها:

وجنّبنـــي قـــرب الســـلاطين مقتـــها
وما يقتضيني من جماجمها النسر

ولعل مما هو ناصع تمام النصوع أن المتنبي يجسّد قوة الإزدراء على نحو نادر في الثقافة العربية برمتها، وهو بهذا يوقظ في قارئه غريزة العظمة ونزعة الحرية والإباء. ثم إنه، كالشافعي حقاً، شاعر الكرامة والعزة والأنفة، بغض النظر عن مثالبه التي لا تخفى على كل من تحرر من الببغاوية والتبعية الساذجة. فلا ريب عندي بأنه مثلوب بمثلبتين على الأقل: التنفج السمج والمبالغات الممجوجة. وهذا يعني أن أعداءه محقّون وأنصاره محقّون في آن واحد. فلئن كانت فيه بعض المثالب فإن له من المناقب ما لا يحصى. وفي الحق أن الشطر الجيد من شعره لا يبذه أي شعر آخر في اللغة العربية طوال تاريخها كله.

❖ ❖ ❖

أسلفت عليك أن شعر الإمام كثيراً ما يتضجر من الناس، وكذلك من الزمان، أو من الحياة التي تمنح الأنذال وتحرم الطيبين. ولا عجب في الأمر، إذ لقد عاش الرجل فقيراً طوال عمره القصير بعض الشيء. ولا بد أنه لاقى عنتاً من الناس، أو من بعضهم، وذلك بحكم كونه مؤسس مذهب ديني من شأنه أن يثير الضغائن، أو شيئاً من المعارضة والاستنكار لآرائه المستجدة.

فمن عادة البشر أن يتنكروا لكل من يحاول الخروج على قواعدهم المستتبة، أو كل من يتجه صوب التجديد. وهذان العاملان، الفقر الشديد والجنوح إلى حيازة الرأي الحر المستقل والمبتكر، هما ما يفسّر هذه الظاهرة في شعر الإمام، أقصد ظاهرة الشكوى من عدوان الناس وجلافتهم، وكذلك الشكوى من أن المجتمع يمنح الذين لا يستحقون ويحرم أولئك الذين يبذلون جهوداً جلى تستحق المكافأة أو التعويض.

والآن، لا بأس في شيء من الأمثلة. يقول الإمام:

أرى حمراً ترعى وتعلف ما تهوى
وأسداً جياعاً تظمأ الدهر لا تروى
وأشراف قومٍ لا ينالون قوتهم
وقوماً لئاماً تأكل المن والسلوى

لعل الحرمان الذي كابده الشافعي، ولا سيما في طفولته، أن يكون المؤسس الأول لهذين البيتين. وينطوي البيت الثاني على فكرة طالما عرضها المتنبي في شعره، وخلاصتها أن الحياة تحرم أفاضل الناس وتكرم لئامهم، أو قل إنه لا ينجح في هذه الدنيا الدنية إلا من كان عديم الشرف وخالياً من الكرامة.

وللشافعي بيتان آخران يشبهان هذين البيتين الأخيرين إلى حد بعيد. يقول:

تموت الأسد في الغابات جوعاً
ولحم الضأن تأكله الكلاب
وعبد قد ينام على حرير
وذو نسب مفارشه التراب

ففي البيت الأول من المقبوس الأخير تجد الأسد الجياع التي كانت في البيت الأول من المقبوس السالف. وبدلاً من الحمير التي ترعى وتعلف كما تهوى، فإنك تجد الكلاب التي تأكل لحم الضأن في المقبوس الأخير. أما العبد الذي ينام على الحرير، فإنه البديل عن القوم اللئام الذين يأكلون المن والسلوى. وأما ذو النسب الذي يفترش التراب فقد حل محل الأشراف الذين لا يحصلون على طعامهم. فالبرهتان، إذن، برهة واحدة في عقر فحواها الأصلي. ولعلها تتضمن ما يؤشر إلى حال بعض الناس ممن كان الإمام يعرفهم، أو ممن يهمه أمرهم إلى هذا الحد أو ذاك.

ولقد سبق لهذه المقدمة أن بينت نظرة الإمام للزمان الذي يملك أعناق الكرام ويسترقهم كالعبيد، بينما تراه يعنو للأوغاد ويصبح مجرد عبد لهم، يطيعهم وينفذ أوامرهم بكل خنوع. وههنا قد يتذكر المرء قول المتنبي:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فلدى الشاعرين كليهما يتبدى الزمان عدواً للأفاضل وصديقاً للأنذال.

ومن المؤكد أن الشافعي قد كان شديد الفقر والعوز، ومثله لا يسعه قط أن ينظر إلى الزمان إلا نظرة كهذه النظرة، فيراه يستعبد أصحاب النفوس الكبيرة، ويستخذي أمام الأنذال والأوغاد. ولقد بلغ به الاشمئزاز من الناس مبلغاً دفعه إلى التطرف بحيث راح يتمنى مجاورة الكلاب بدلاً من مجاورة البشر، وهذا ما قاله في بيت شعر أوردته سالفاً في سياق هذه المقدمة.

ولكنني أكاد أن أجزم بأن الشافعي لم يقل هذا البيت الشعري قط، إذ إنه لا يليق البتة بإمام يسعى إلى إنشاء مذهب ديني خاص.

وعلى أية حال، ها هو ذا يقول في موضع آخر:

إنــي صحبــت النــاس مــا لــهم عــدد
وكنـت أحسـب أنـي قـد مـلأت يـدي
لمـــا بلـــوت أخلائـــي وجدتـــهم
كالدهر في الغدر لم يُبقوا على أحد

إن هذا الشعور المرير بالاغتراب في هذه الدنيا له ما يقابله تماماً في شعر أبي الطيب:

مـــا مقـــامي بـــأرض نحلـــة إلا
كمقـــام المســـيح بـــين اليـــهود
أنـــا فـــي أمـــة تداركـــها اللـــه
غريـــب كصـــالح فـــي ثمـــود

وفي موضع آخر ترى المتنبي، تحت ضغط الاغتراب، يتمنى الموت لأنه لم يجد صديقاً، ولا حتى عدوا مداجياً. ويبدو أن أصحاب القامات الفارهة قد كان حتماً عليهم أن يعيشوا بغير أصدقاء، إذ لعل من شأن العبقرية أن ترفض التكيف مع كل ما هو مألوف أو عادي.

ولكن لا بأس في الإشارة إلى أن المعري شديد الشبه بالشافعي والمتنبي في هذا الجانب من جوانب الشخصية، أقصد الشعور بالاغتراب أو بالاستلاب الاجتماعي، وكذلك التضجر من الناس ومن سوء العلاقة بهم. ولهذا فقد سجن نفسه في منزله ورأى أنه رهين ثلاثة محابس، هي محبس العمى، ومحبس البيت،

وأن (النفس في الجسد الخبيث). وكثيرا ما أشار إلى عزلته ووحدته بطريقة تدل دلالة حاسمة على مكابدة مرارة الاغتراب. ولا بأس إذا ما استشهدت بهذا البيت:

تخـــير، فإمـــا عزلـــة مثـــل ميتـــة
وإمـا جليـس فـي الأنـــام منـــافق

بل إن شعوره بالغربة الوجودية قد كان صريحا جدا. وهذا بيت يؤكد صحة هذا الزعم:

هـــي غربتـــان، فغربـــة مـــن عـــاقل
ثـــم اغـــتراب مـــن محكـــم عقلـــه

وأيا ما كان جوهر الشأن، فإن ما قاله المتنبي في الزمان يبذ كل قول آخر. فمن ذا الذي أدرك حقيقة الأمر كما فعل أبو الطيب، اللهم إلا أن يكون ابن خلدون الذي عاش بعد الشاعر بخمسة قرون، أو أكثر بقليل. فها هو المتنبي يقول:

أتـــى الزمـــان بنـــوه فـــي شـــبيبته
فســـرهم وأتينـــاه علـــى الـــهرم

ثم إنه يرفض زمنه رفضا نهائيا في هذا البيت الشعري النادر:

دهـــر يمـــر وعمـــر ليـــت مدتـــه
فـي غـير أمتـه مـن ســالف الأمـم

صادق في ذهني أن المتنبي هو شاعر الوجدان الشديد الخصوصية، وصانع الصور التي تنم عن فردية فريدة نأت بنفسها عما سواها حتى وقفت على حيدة من الجميع. وهذه صورة شعرية أسردها لتكون بمثابة مصداق على ما أزعم:

ولو برز الزمان إليَّ فرداً
لخضّب شعر مفرقه حسامي

ثم إنه حاقد على الزمان (أي على الوجود، أو على الحياة)، وكذلك على البشر إلى حد متطرف، بل شديد الإيغال في الإفراط. فلئن كان الشافعي يتضجر من الناس ومن الزمن الذي عاش فيه، فإن المتنبي قد بلغ من الاغتراب حداً جعله ناقماً على الأشياء، بل مكفهر النفس ميالاً إلى العدوان. اسمعه يقول:

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس، روَّى رمحه غير راحم

ولعل من شأن هذا البيت الموغل في النزق أن يذكّر المرء بقول الشافعي الآنف الذكر، وذلك حين ينصحك بأن تكون جحيماً كي تحرق أشواك الناس عندما تقترب منهم.

ناصع، إذن، أن كلاً من الرجلين مغترب كبير يكابد أزمة الاتصال بالناس، أو يقاسي معضلة الانتماء إلى زمنه الذي يعيش فيه. فكلا الرجلين مقتنع بأن الحياة قد منعته من البلوغ إلى حقه، أو إلى ما يستحقه من القيمتين المادية والمعنوية. وفضلاً عن ذلك، فإن كلا الرجلين حكيم، فهو ينم عن أصالة في استيعاء التجربة الحية، وكذلك عن قدرة نادرة على فهم الحياة التي يكابدها باستمرار. ولكن أهم ما في أمرهما هو تلك الحساسية النفيسة التي ينبثق منها

شعرهما، والتي من شأنها أن تجعل منهما كائنين متميزين في تاريخ الثقافة العربية.

بيد أن أبرز ما أرغب في التوكيد عليه يتلخص في أن ارتباط المتنبي بالشافعي ليس من فصيلة (السرقات)، وإنما هو علاقة بين متأثر ومؤثر. فمما هو شديد الصدق في ذهني أن السابق يصنع اللاحق في كل زمان ومكان، وأن الثاني مشروط بالأول على الدوام، ومن المحال أن تسير الأمور هملاً، أو دون أن ترضخ لناموس الشارط والمشروط، الذي هو بالضبط ناموس القبل والبعد، أو ناموس الوالد والمولود. فحين تأخذ ما هو ناجز أو جاهز، فإنك تكون قد أخذت ما لم ينجز بعد، أو ما هو في سبيله إلى أن يصير، وذلك لأن السياق لا يفرز إلا ما هو مضمر أو مكنون.

ومما هو بدهي أن حركة الشعر التراثي، التي لا ندري متى بدأ مسارها فعلاً، والتي أقدّر أنها ترقى إلى مطالع القرن السادس الميلادي، أو ربما قبل ذلك بكثير أو بقليل، إن تلك الحركة كانت قد راكمت ثرواتها الشعرية طوال أربعة قرون، أو خمسة، شديدة الخصوبة وغنية بالخبرة الفنية، بحيث صارت مؤهبة تمام التأهب لصنع شاعر كبير، فجاء المتنبي في القرن العاشر الميلادي كنتيجة طبيعية لذلك التراكم ولتلك الخصوبة المعطاء.

لست أملك أن أزعم بأن هذه المقدمة الراهنة، على طولها أو على ضخامة حجمها الكمي، قد تمكّنت من أن تحيط بجميع القضايا ذات الصلة بشعر الإمام الشافعي. فهي لم تحلل الأسلوب لتكشف عن سماته بالتفصيل كما أنها لم تبحث في آثار الأسلاف على هذا الشاعر نفسه، ولم تبيّن تأثيره، أكان كبيراً أم صغيراً، على من جاء بعده من الشعراء، باستثناء المتنبي. فلا بد لمثل هذا الشاعر الاغترابي، الذي اتهم بالنضال ضد السلطة، من أن يكون قد أثر على أبي العلاء بوجه خاص، وأبو العلاء هو الشاعر الذي يشعر بحق، وذلك لفرط حساسيته التي جعلت منه المغترب الأكبر في تاريخ الثقافة العربية بأسرها. فحين ينتهي المرء

من قراءة (اللزوميات)، فإنه سوف يدرك تمام الإدراك أن الاغتراب هو نفور الروح من الوجود، أو هو ذلك التنافي المتبادل الذي يمارسه كل من الروح والوجود أحدهما على الآخر.

وربما جاز الزعم بأن للشافعي تأثيراً على أبي تمام وابن الفارض بوجه خاص، إلا أن مثل هذا التأثير لم يبحث في هذه المقدمة. ولكن لا يجوز لأي امرىء أن يزعم بأن هذا الشاعر هو مؤسس شعر الاغتراب في حركة الشعر التراثي، إذ لا ريب في أن شعراء الجاهلية قد سبقوا جميع الشعراء العرب إلى اتخاذ هذه الموضوعة واحداً من أكبر العناصر التي تؤلف فحوى القصيدة. وعندي أن قصيدة مثل لامية العرب هي قصيدة اغتراب في المقام الأول. أما شعر طرفة بن العبد وامرىء القيس الكندي فيكاد الاغتراب أن يكون لحمته وسداه في الوقت نفسه.

ومن المؤكد أن أبا العتاهية الذي يكبر الإمام بعشرين سنة، أو زها ذلك، هو المغترب الأكبر في القرن الثاني الهجري. ولكن المرء يسعه أن يزعم بأن الإمام قد كان أكثر تأثيرا من أبي العتاهية على الشعراء اللاحقين، ولا سيما على المتنبي والمعري، اللذين هما ذروة الشعر العربي كله.

وأيا ما كان الأمر، فإن دراسة ديوان الشافعي، بل أي ديوان شعري أصيل، لا يشبعها إلا مجلد قائم بذاته، وليس مقدمة هي، بحكم منطقها، صغيرة المساحة مهما تكثر صفحاتها. فلو أراد المرء أن يكشف عن جذور أسلوب الشاعر، وهي الضاربة في تربة أسلافه حتما، وكذلك في طبيعة المدن المتخشبة التي عاش فيها، ولا سيما بغداد الرشيد الشديدة الانغماس في الترف، لو أراد المرء ذلك لاحتاج إلى جهد كبير، لأن مثل هذا العمل في منتهى العسر والمشقة.

ولكنني أستطيع أن أزعم بأن أسلوب الشافعي الشديد البساطة، متأثر بالنشاط الأكبر الذي كان يمارسه الإمام، أعني فقه الدين والتعرف على أصوله وفروعه. فالإمام فقيه أولا وشاعر ثانيا، وليس العكس. وهذا يعني أن الشعر فاعلية

ثانوية في حياة الرجل. وإذا ما علمنا أن الفقه في جوهره محاولة لتوضيح أمور الدين وتبسيطها وتيسيرها للناس، أدركنا لماذا كان أسلوب الشافعي بسيطا ومباشرا وخاليا من الصنعة الفنية، إذ لا بد لتبسيط الدين وتوضيحه من أن يواكبه أو يلازمه تبسيط في اللغة أو في الأسلوب، بحيث يعرى القول الشعري من معظم أصناف البلاغة والانتحاء اللغوي الخاص.

أما أن شعر الإمام منحول كله، فهذا شأن لم يعد في الميسور البتة أن يتأكد منه أحد، كائناً من كان. ولكن بعضه منحول جزماً. ثم إن المنحول منه بيّن في ذاته، وذلك بسبب ما يندرج فيه من اصطناع لا يخفى على كل من صان ذائقته الفنية من التلف أو من الفساد. فلو قرأ المرء جميع القصائد المنسوبة إلى الشافعي للاحظ أن لها أسلوبين، على الأقل، أولهما سويّ تتمتع لغته بحرية الحركة، وثانيهما متليف تتبدى عليه أمارات التخشب والتلمظ الممجوج، وذلك لأن أسلوبها محشوّ بالوعورة والحركة الثقيلة المحرومة من الانسياب التلقائي الحر.

لم يبق إلا أن أشير إلى أن القصائد التي تحتويها هذه الطبعة الراهنة قد أخذتها من طبعات كثيرة ومتنوعة. وهي في الحقيقة مختارات قد لا تزيد عن نصف الشعر المنسوب إلى الشافعي، وذلك لأنني حاولت أن أجتنب كل قصيدة أحسبها منحولة أو مزورة. ولهذا، فإن الأسلوب في جميع هذه القصائد الراهنة، أو في معظمها، موحد تقريباً، أو لعله أن يكون شديد التشابه والتقارب. وهذا يعني أن جل الأشعار المودعة في هذه الطبعة تتميز بلغة بسيطة تنساب على نحو تلقائي، ودون أية وعورة أو تلعثم.

وكلي أمل في أن أكون قد عملت وفقاً للمبدأ الذي تحتويه هذه الآية الكريمة: (( **أما الزبد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** )) صدق الله العظيم.

**مخيم اليرموك**

**نوّار، سنة ٢٠٠٣**

# ديوان الشافعي

## قافية الهمزة والألف

### نصائح

دع الأيـــامَ تفعـــلُ مـــا تشـــاءُ
وطـــبْ نفســاً إذا حكــم القضـــاءُ

ولا تجـــــزعْ لحادثـــــة الليــــــالي
فمـــا لحــــوادث الدنيـــا بقـــاء

وكـــن رجـــلاً علـــى الأهـــوال جلـــداً
وشـــيمتُك الســـــماحةُ والوفـــاء[1]

وإن كـــثرتْ عيوبُـــك فـــي البرايـــا
وســـرّك أن يكـــون لـــها غطـــاء[2]

تســــتّر بالســــخاء فكـــل عيـــب
يغطيـــه، كمـــا قيـــل، الســـخاء[3]

ولا تُـــــرِ للأعــــادي قـــــطّ ذُلا
فـــإن شــــماتة الأعـــدا بـــلاء[4]

ولا تـــرجُ الســــماحة مـــن بخيـــل
فمـــا فـــي النـــار للظمـــآن مـــاء

إذا مـــا كنـــت ذات قلـــب قنـــوعٍ
فـــأنت ومـــالك الدنيـــا ســـواء

دعِ الأيـــامَ تغـــدرُ كـــلَّ حـــين
فمـــا يغنـــي عـــن المـــوت الـــدواء

---

(١) الشيمة: العادة.

(٢) البرايا: المخلوقات.

(٣) السخاء: الكرم أو العطاء مجاناً.

(٤) الشماتة: سرور عدوك بمصيبتك.

## جور الزمان

أرى حمـرا ترعـى وتعلـف مـا تـهوى
وأسدا جياعا تظمأ الدهر لا تروى[5]

وأشــرافُ قــومٍ لا ينـــالون قُوْتــهمْ
وقومـاً لئامـاً تـأكل المـن والسـلوى[6]

فمـن عـرف الدهـر الخـؤون وصرفـه
تصبَّر للبلوى ولـم يظـهر الشـكوى[7]

# حرف الباء

## الفرق

أصبحـتُ مُطَّرَحـاً فـي معشـر جـهلوا
حقَّ الأديب فبـاعو الـرأس بـالذنبِ[8]

والنـــاسُ يجمعـــهمْ شـــملٌ، وبينـــهمُ
في العقلِ فرقٌ وفي الآدابِ والحسب

كمثـل مـا الذهـــبُ الابريـــزُ يشـــركه
فـي لونـه الصُّفـر، والتفضيـلُ للذهـب

---

(٥) حُمُر: حمير، أي جمع حمار ـ تظمأ: تعطش.

(٦) قوتهم: طعامهم ـ المن والسلوى: طعامان ورد ذكرهما في القرآن الكريم.

(٧) الخؤون: الخائن أو الغدار ـ البلوى: المصيبة ـ صرف الزمان: حوادثه ومصائبه.

(٨) مُطَّرَحاً (بتشديد الطاء): مرمياً.

(٩) الحسب: ما هو من مآثر الآباء والأجداد.

(١٠) الذهب الإبريز: الخالص الذي لا تخالطه أية مادة أخرى ـ الصُّفْر (بضم فسكون): النحاس.

والعـودُ لـو لـم تَطِـبْ منـــه روائحُـــهُ
لـم يَفـرِقِ النـاسُ بـين العـودِ والحطـب

## أين العدل

تمـوت الأُسـدُ فـــي الغابــات جوعـــاً
ولحـــمُ الضـــأنِ تأكلـــهُ الكـــلابُ
وعبـــدٌ قـــد ينـــامُ علـــى حريـــرٍ
وذو نســـبٍ مفارشُـــه الـــتراب[١٢]

## غرور وسراب

خبـتُ نـارُ نفســي باشـتعال مفـارقي
وأظلـم ليلـي إذ أضــاء شـــهابُها[١٣]
أيـا بومـةً قـد عشّشـتِ فـوق هـامتي
على الرغم مني حين طار غرابُها[١٤]
رأيـتِ خـرابَ العمـرِ منـــي فزرتِنـــي
ومــأواك مــن كــل الديــار خرابــها
أأنعـم عيشـا بعدمـا حـل عـارضي
طلائع شيب ليس يغني خضابها[١٥]

---

(١١) يفرق: يميز.

(١٢) ذو نسب: هو من ينتمي إلى أسرة كريمة.

(١٣) خبت: انطفأت ـ مفارقي: شعري. والمقصود أن شعره قد اشتعل شيبا. ومن شأن هذا الاشتعال أن يجعل النفس تظلم حزنا على بداية الشيخوخة.

(١٤) الهامة: الرأس. شبه الشيب بالبومة وسواد الشعر بالغراب.

(١٥) العارض: جانب الرأس. ـ طلائع: أوائل أو بدايات.

إذا اصفـرّ لـونُ المـرءِ وابيـضَّ شـعرُه
تتغّــص مــن أيامِــهِ مســتطابُها

فــدعْ عنــك سَــوْءات الأُمــور فإنــها
حـرامٌ علـى نفسِ التقـيِّ ارتكابُـها[١٦]

وأدِّ زكـــاة الجـــاهِ، واعلـــمْ بأنـــها
كمثـل زكـاةِ المـالِ تمَّ نصابُـها[١٧]

وأحسـنْ إلـى الأحـرار تملـكْ رقابَـهم
فخـيرُ تجـاراتِ الكـرامِ اكتسـابُها

ولا تمشـينْ فـي منكـبِ الأرضِ فـاخراً
فعمّــا قليـلٍ يحتويـك ترابُــها[١٨]

ومــن يــذق الدنيــا، فــإني طعمتُــها
وسِـيق إلينـا عذبُـها وعذابُـها[١٩]

فلــم أرهــا إلا غــروراً وبــاطلاً
كما لاح في ظهر الفلاةِ سـرابُها[٢٠]

ومــا هـــي إلا جيفـــةٌ مســـتحيلةٌ
عليـها كـلابٌ همَّــهُنّ اجتذابُـها[٢١]

فــإن تجتنبْــها كنــتَ سِــلماً لأهلــها
وإن تجتذبْــها نــازعتكَ كلابُــها

فطوبــى لنفــسٍ أُولعـتْ قعــرَ دارِهــا
مُغلّقـةَ الأبـوابِ مرخًـى حجابُـها[٢٢]

---

(١٦) سَوْءات: كل ما هو سيء.

(١٧) النصاب: هو المبلغ الذي تجب عليه الزكاة.

(١٨) منكِب الأرض: ناحية من نواحيها.

(١٩) طعمتها: أكلتها.

(٢٠) الفلاة: البرّية.

(٢١) مستحيلة: متحوّلة أو متغيرة.

## الحِلم

يُخـــاطبني السَــفيهُ بكـــلِ قُبـــحٍ
فـــأكرهُ أن أكـــونَ لـــهَ مجيبـــاً[٢٣]

يزيـــدُ ســـفاهةً فـــأزيد حِلمـــاً
كعـــود زاده الإحـــراق طيبـــا[٢٤]

## الإيثار

ولـو أننـي أسـعى لنفعـي وجدتنـي
كثـير التوانـي للـذي أنـا طالبـه

ولكننـي أسـعى لأنفـع صـاحبي
وعـار على الشبعان إن جـاع صاحبـه

## الحب المرفوض

ومـــن البليـــة أن تحـــب
ولا يحبـــك مـــن تحبـــه[٢٦]

ويصـــد عنـــك بوجهـــه
وتلـــح أنـــت، فـــلا تغبـــه[٢٧]

---

(٢٢) طوبى: هنيئا. ويبدو أن هذه الكلمة ذات صلة باليوتوبيا التي هي بلد خيالي فيه هناء وسعادة وليس فيه أي شقاء. ـ أولعت: أحبت بإفراط.

(٢٣) السفيه: الضعيف العقل.

(٢٤) الحلم: العقل، أو رصانة العقل ممزوجة بالطيبة والأناة.

(٢٥) التواني: الفتور والبطء في الحركة. وهذا البيت تجسيد للإيثار أو لمكارم الأخلاق التي ترى الأنا من أجل الآخرين قبل أن تكون من أجل ذاتها.

(٢٦) البلية: المصيبة.

## القناعة

بلــوت بنـــي الدنيـــا فلـــم أر فيـــهم
سوى من غدا والبخل ملء إهابه[٢٨]

فجـردت مـن غمــد القناعــة صارمــا
قطعــت رجــائي منــهم بذبابـــه[٢٩]

غنـــيٌّ بـــلا مـــال عـــن النـــاس كلـــهمْ
وليـس الغنــى إلا عـن الشــيءِ لا بــهِ

فكــم قـــد رأينـــا ظالمـــاً متمـــرداً
يـرى النجـمَ تيـهاً تحـت ظـلِ ركابــهِ

فعمّـــا قليـــل، وهـــو فـــي غفلاتـــه،
أنـاخت صـروف الحادثـات ببابـه[٣٠]

وجُــوزيَ بــالأمرِ الــذي كــان فــاعلاً
وصـبَّ عليـه اللـهُ سـوطَ عذابـهِ[٣١]

## مكارم الأخلاق

أُحـــب مكـــارم الأخـــلاق جـــهدي
وأكـــره أن أعيـــب وأن أُعابـــا[٣٢]

وأصفــح عــن سِــباب النـــاس حلِمــاً
وشـر النـاس مـن يـهوى السِـبابا[٣٣]

---

(٢٧) تُغبّه: ترضيه، أو تصل إلى قلبه.

(٢٨) بلوت: جرّبت وخبرت. ـ الإهاب: سطح الجلد.

(٢٩) ذباب السيف: حده.

(٣٠) صروف الحادثات: مصائب الدهر.

(٣١) جوزي: عوقب ـ السوط: الكرباج وسوط العذاب هو العقاب الشديد، على المجاز. وقد وردت هذه العبارة في القرآن الكريم.

(٣٢) جهدي: أي على قدر استطاعتي.

## السفر

مـا فــي المُقـام لـذي عقـل وذي أدبٍ
مـن راحـة، فـدع الأوطـانَ واغـتربِ[٣٤]

سـافرْ تجـدْ عوضـاً عمّـن تفارقُـهُ
وانصَبْ، فإن لذيـذ العيـش فـي النصب

إنـي رأيـتُ وقـوفَ المـاءِ يُفسـدُهُ
إن ساح طاب، وإن لم يجـرِ لـم يطـب

والشـمسُ لـو وقفتْ فـي الفَلْـك دائمـةً
لملها النـاسُ مـن عجـمٍ ومـن عـربِ[٣٧]

## الغِر

أرى الغِـرَّ فـي الدنيـا، إذا كـان فـاضلاً
ترقّى على روسِ الرجالِ ويخطبُ[٣٨]

وإن كـان مثلـي لا فضيلـة عنـده
يقـاس بطفـل فـي الشـوارع يلعـب

(٣٣) الحِلم: رزانة العقل والعفو عند المقدرة. وهي بكسر الحاء وجزم اللام.

(٣٤) المُقام: الإقامة والاستقرار.

(٣٥) إنصب: إتعب. والنصب: شدة التعب.

(٣٦) ساح: سار.

(٣٧) الفلك: (بفتح الفاء) مدار النجم. وقد اضطر الشاعر أن يسكّن اللام ليستقيم الوزن الشعري.

(٣٨) الغِرّ: (بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء) هو من لا خبرة له أو تجربة.

## مغامرة

سـأضرب فــي طـول البـلاد وعرضـها
أنـــالُ مُــرادي أو أمــوتُ غريبــا[٣٩]

فــإن تلفــتْ نفســـي فللـــهِ درُّهـــا
وإن سـلمتْ كــان الرجــوع قريبــا[٤٠]

# حرف التاء

## الأحياء والأموات

وأفضـلُ النـاسِ مـا بـين الـورى رجـلٌ
تُقضـى علـى يـدهِ للنــاسِ حاجـاتُ[٤١]

قـد مـات قــومٌ ومـا مــاتتْ مكارمُــهمْ
وعـاش قـوم وهـم فـي النــاسِ أمـواتُ

## تحية للعدو

لمــا عفـوتُ ولـم أحقــدْ علــى أحــدٍ
أرحــتُ نفســي مــن هــمّ العــداواتِ

إنـــي أُحيـــي عــدوّيْ عنــد رؤيتِـــهِ
لأدفـــعَ الشـــرَّ عنـــي بالتحيـــاتِ

النـــاسُ داء، وداء النـــاس قربـــهم
وفــي اعتزالــهم قطـع المــوداتِ[٤٢]

---

(٣٩) المراد: المطلوب.

(٤٠) لله دَرُّها: أي لله عملها. والدَّر في الأصل هو ما تدره المواشي من الحليب. وقد استُعملت هذه الكلمة على المجاز.

(٤١) الورى: الخَلْق (بفتح فسكون).

## السكوت أفضل

إذا نطــق الســفيهُ فــلا تجبْــهُ
فخــيرٌ مــن إجابتِــه الســكوتُ[٤٣]

فــإن كلّمتَــهُ فرَّجْــتَ عنــهُ
وإن خلَّيتَــهُ كمــداً يمــوتُ[٤٤]

## الاعتذار مصيبة عند الاستجداء

يــا لــهفَ نفســي علــى مــالٍ أُفرّقُــهُ
علــى المقلّــينَ مــن أهــلِ المُــروآت[٤٥]

إن اعتــذاري إلــى مــن جــاء يســألُني
مـا ليـس عنـدي لمـن جنـسِ المصيبـاتِ

---

(٤٢) قالت الفلسفة الحديثة: (الآخرون هم الجحيم). وهذا ما يقوله البيت الأخير. بيد أن الشاعر يتنبه للأزمة الناشبة، فالاقتراب من الناس معضلة، لأنهم أشرار، أما الابتعاد عنهم فهو معضلة أخرى، لأن في ذلك انقطاعاً عن المودة والألفة والأنس بالآخرين.

(٤٣) السفيه: ضعيف العقل.

(٤٤) الكمد: الغم والهم والحزن الشديد.

(٤٥) يا لهف نفسي: يا حسرتي ـ المقلون: أهل القلة، أو الفقراء.

## لغة المال

وأنطقـــتِ الدراهـــمُ بعـــد صمـــتٍ
أناســـاً بعـــد مـــا كـــانوا سُـــكوتا

فمـــا عطفـــوا علـــى أحـــدٍ بفضـــلٍ
ولا عرفـــوا لمكرُمـــةٍ ثُبوتـــا[٤٦]

كـــذاكَ المـــال يُنْطِـــقُ كـــلَّ عَـــيٍّ
ويـــتركُ كـــلَ ذي أدبٍ صموتـــا[٤٧]

## الصديق المناسب

أحُـــبُ مـــن الإخـــوانِ كـــل مُواتـــي
وكلَ غضيضِ الطرفِ عن عثراتي[٤٨]

فمـــن لـــي بـــهذا؟ ليـــت أنـــي أصيبُـــهُ
لقاســـمتُهُ مـــا لـــي مـــن الحســـناتِ

تصفحـــتُ إخوانـــي، فكـــان أقلّـــهم
_ على كثرة الإخوان _ أهلُ ثقـاتي[٤٩]

---

(٤٦) المكرُمة (بفتح فسكون فضم): هي الفعل الحسن الذي يورث الحمد والمجد.

(٤٧) العي (بفتح العين): هو من ينطق بصعوبة قصوى.

(٤٨) المواتي: الذي يوافقك.

(٤٩) أهل ثقاتي: الذين يستحقون ثقتي.

## المعلم

اصــبرْ علــى مُــرّ الجفــا مــن مُعلّــمٍ
فــإن رســوبَ العلــمِ فــي نفراتِــه[٥٠]

ومــن لــم يــذقْ مَــرَّ التعلــم ســاعةً
تجــرّعَ ذَلّ الجــهلِ طــولَ حياتـــهِ

ومــن فاتــه التعليــم وقــتَ شــبابِهِ
فكـــبّرْ عليـــه أربعـــاً لوفاتِـــهِ

# حرف الجيم

## الضيق والفرج

ولـــرُبَّ نازلـــةٍ يضيـــقُ لـــها الفتـــى
ذَرعـــاً، وعنـــد اللـــه منـــها المخـــرجُ

ضـــاقتْ، فلمـــا اســـتحكمتْ حلقاتـــها
فُرجـــتْ، وكنـــتُ أظنـــها لا تُفـــرَجُ

---

(٥٠) الجفا: الإعراض. واستعارها الشاعر لتعني العسر ـ رسوب العلم: رسوخه في العقل. ـ النفرات: جمع النفرة، وهي النفور.

## إكليل الكلام

عنـــدي يواقيـــت القريـــض ودره
وعلـــي إكليـــل الكـــلام وتاجـــه[٥١]

تربـــى علـــى روض الربـــا أزهـــاره
ويـرف فـي نـادي النـدى ديباجـه[٥٢]

والشـــاعر المنطيـــق أســـود ســـالخ
والشـــعر منـــه لعابـــه ومجاجـــه[٥٣]

وعـــداوة الشـــعراء داء معضـــل
ولقـد يـهون علـى الكريـم علاجـه[٥٤]

---

(٥١) القريض: الشعر.

(٥٢) تربى: تعيش ـ الربا: جمع رابية، وهي التلة الصغيرة. ـ الديباج: الحرير. واستعار الكلمة ليكني بها عن الجودة أو عن الجمال والرونق.

(٥٣) المنطيق: القادر على القول الجيد. ـ أسود سالخ: ثعبان أسود يسلخ جلده كل عام. وهو هنا كناية عن القوة. ـ مجاجه: العصير، أو ما يفرزه النحل من عسل.

(٥٤) معضل: أي لا حل له ولا علاج بتاتاً.

# حرف الحاء

## الصمت

قالوا: سكتَّ وقد خُوصمتَ. قلت لهم:
إن الجــوابَ لبــابِ الشــرّ مِفتــاحُ

والصمتُ عن جاهل أو أحمق شـرفٌ
وفيه أيضـاً لصـونِ العـرضِ إصـلاحُ

أما تـرى الأسـد تخشى وهـي صامتـةٌ
والكلبُ يُخسى، لعمري، وهو نبّـاحُ[55]

# حرف الدال

## الكلاب أفضل

ليـت الكـلابَ لنـا كـانتْ مجـاورةً
وليتنـا لا نـرى ممـن نـرى أحـدا

إن الكـلابَ لتـهدي فـي مواطنـها
والخلـقُ ليـس بـهادٍ شـرُّهم أبـدا

فـاهربْ بنفسِكَ واسـتأنِسْ بوحدتِـها
تبقى سعيداً إذا ما كنتَ منفـردا[56]

---

(٥٥) يخسى: يطرد.

(٥٦) لم يُحذف حرف العلة من كلمة (تبقى) وذلك لضرورة الوزن.

## الزمان

مِحــنُ الزمـــانِ كثــيرةٌ لا تنقضـــي
وســـــروره يــــأتيكَ كالأعيـــادِ[٥٧]

ملـــكَ الأكَـــابرَ فاســـترقّ رقابَـــهُمْ
وتـــراه رِقّــا فـــي يـــد الأوغـــاد[٥٨]

## لا خير في الناس

إنـــي أتيــتُ النــاسَ مــا لــهم عــددُ
وكنـتُ أحسبُ أنــي قـد مـلأتُ يـدي

لمـــا بلـــوتُ أخلاّئـــي وجدتُـــهُمُ
كالدهرِ في الغدرِ، لم يبقوا على أحد

إن غبتُ عنـهم فَشـرُّ النـاس يشـتُمني
وإن مرضـتُ فخـيرُ النـاس لـم يَعُـدِ

وإن رأونـــي بخـــير ســـاءهم فرحـــي
وإن رأونـــي بشـــرٍّ ســـرَّهم نكــدي[٦٠]

---

(٥٧) محن: جمع محنة، وهي المصيبة.

(٥٨) الأوغاد: جمع وغد، وهو الرذل الدنيء، أو الأحمق الضعيف.

(٥٩) بلوتُ: اختبرت أو جرّبت.

(٦٠) النكد: الغم واضطراب النفس.

## هل من مساعد

ولمــا أتيــتُ النــاسِ أطلــبُ عنَدهــم
أخـا ثقـةٍ عنـد ابتـلاءِ الشـدائدِ[٦١]

تقلبــتُ فــي دهــري رخــاءً وشــدةً
وناديتُ في الأحياءِ: هل من مساعد

فلـم أر فيمــا ســاءَني غــيرَ شــامتٍ
ولـم أرَ فيمـا سـرني غـيرَ حاسـدِ[٦٣]

## عجبي

فيــا عجبــي، كيــف يُعصــى الإلــهُ؟
أم كيــف يجحــدُه الجــاحدُ؟[٦٤]

وفـــي كـــلّ شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ
تـــدلُ علـــى أنـــه الواحـــدُ[٦٥]

---

(٦١) أخا ثقة: رجلاً موثوقاً يعتمد عليه. ـ ابتلاء الشدائد: نزولها لتختبرني.

(٦٢) الرخاء: عكس الشدة.

(٦٣) الشامت: الذي تسره مصيبتك.

(٦٤) يجحده: ينكره.

(٦٥) الآية: البرهان.

## تفاءَل

لا تيأسنّ من لطفِ ربكَ في الحشا
في بطنِ أمك مضغةً ووليدا[٦٦]

لو شاءَ أن تصلى جهنمَ خالداً
ما كان ألهم نفسكَ التوحيدا

## إرادة الله

يريدُ المرءُ أن يُعطى مُناهُ
ويأبى اللهُ إلا ما أرادا

يقولُ المرءُ: فائدتي ومالي
وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

---

(٦٦) الحشا: ما يحتويه البطن من أعضاء.

## الشافعي والشعر

ولـــولا الشـــعرُ بالعلمـــاءِ يُـــزري
لكنــتُ اليــومَ أشــعرُ مــن لبيــدِ[٦٧]

ولـــولا خشـــيةُ الرحمـــنِ ربـــي
حســـبتُ النـــاسَ كلَّـــهم عبيـــدي

## الغيب

كــم ضــاحكٍ والمنايــا فــوق هامتِــهِ
لـو كـان يعلم غيباً مـات مـن كمـدِ[٦٨]

مـن كـان لـم يؤتَ علمـاً فـي بقـاءِ غـدٍ
مـــاذا تفكــره فـــي رزقِ بعــدَ غــدِ؟

## الاستسلام لله

إذا أصبحـــتُ عنـــدي قـــوتُ يومـــي
فخـــلِّ الـــهمَّ عنـــي، يـــا ســـعيدُ

ولا تَخطـــرْ همـــومُ غـــدٍ ببـــالي
فـــإن غـــداً لـــه رزق جديـــدُ[٦٩]

أُســـــلّم إن أراد اللـــــهُ أمـــــراً
فـــأتركُ مـــا أريـــد لمـــا يريـــد

---

(٦٧) لبيد: هو لبيد بن ربيعة العامري، أدرك الإسلام فأسلم. عُمّر طويلاً. له معلّقة.

(٦٨) المنايا: جمع منيّة، وهي الموت. ــ الكمد: شدة الغم.

(٦٩) جزم الشاعر كلمة (تخطر) لضرورة الوزن الشعري.

## المحظوظ

أرى راحـــةً للحـــقِّ عنـــد قضائِـــهِ
ويَثقـلُ يومـاً إن تركـتُ علـى عمـدِ

وحسـبُكَ حظـاً أن تُـرى غـيرَ كـاذبٍ
وقولُكَ: (لم أعلمْ)، وذاك من الجهد

## الحساد

إنـــي نشـــأتُ وحسّـــادي ذوو عـــددٍ
ربَّ المعـارج، لا تُفنـي لـهمْ عـددا[٧١]

إن يحسـدوني علـى مـا بـي لمـا بـهم
فمثـلُ مـا بـي لمـا يجلـبُ الحسـدا

## الأسفار

تغّـربْ عـن الأوطـانِ فـي طلـب العُـلا
وسـافرْ ففـي الأسـفارِ خمـسُ فوائـدِ

تفـــرُّجُ هـــمٍّ واكتســـابُ معيشـــةٍ
وعلـــمٌ وآدابٌ وصحبـــةُ مـــاجدِ

---

(٧٠) الجهَد: الإنهاك، أو العسر والتعب الشديد.

(٧١) ذوو عدد: كثيرون. ـ المعارج: جمع معراج، أو جمع معرج، وهو الطريق الصاعد إلى الله. ـ لا تُفن: لا تُزل، أو لا تُنهِ. وقد أجبر الشاعر على تثبيت حرف العلة في آخر كلمة (تفني) ليستقيم الوزن الشعري.

# حرف الراء

## همة الملوك

أمطــري لؤلــؤاً، جبـــالَ ســـرنديب
وفيضـــي، آبــارَ تكـــرورَ، تـــبرا[٧٢]

أنــا، إن عشــت، لســـتُ أعــدمُ قوتــاً
وإذا مـــت لســـتُ أعـــدمُ قـــبرا

همّتـــي همـــةُ الملـــوك، ونفســـي
نفـــسُ حـــرٍّ تـــرى المذلـــةَ كفـــرا

وإذا مـــا قنعـــتُ بـــالقوتِ عمـــري
فلمـــاذا أزور زيـــداً وعمـــرا؟

## عمّ البلاء

مــن ذا الــذي قــد نــال راحــةَ ســرِّهِ
فــي عُســرِهِ، إن كــان، أو فــي يُســرِهِ؟

فلربمـــا يلقـــى الغنـــيُّ بمالِـــهِ
أضعــافَ مــا يلقــى الفقــيرُ بفقــرِهِ

عـــمَّ البـــلاءُ، لكـــلّ شـــملٍ فُرقـــةٌ
يُرمـــى بـــها فـــي يَومِـــهِ أو شـــهرِهِ

---

(٧٢) سرنديب: هي جزيرة سيلان التي تسمى اليوم سريلانكا. وموقعها في البحر المحيط إلى الجنوب من الهند. وكانت مشهورة بجوهرها. ـ تكرور: إقليم في القرن الإفريقي الغربي يقع الآن في بلاد السنغال، وقد اشتهر بمناجم الذهب في الأيام الغابرة. ـ الآبار: قصد بها المناجم. ـ التبر: الذهب قبل استخلاصه، أو هو فلز الذهب، أو الذهب قبل صياغته.

## ثياب ونفس

علـــيَّ ثيـــابٌ لـــو تبـــاعُ جميعُـــها
بِفَلـسٍ لكـان الفَلـسُ منـهنَّ أكـثرا[٧٣]

فيــهُنَّ نفـــسٌ لـــو تقـــاسُ ببعضـــها
نفـوسُ الـورى كـانتْ أجـلَّ وأكـبرا[٧٤]

## الوحدة

إذا لــم أجــد خِــلا نقيّـــاً فوحْدَتـــي
ألــذُّ وأشـهى مـن غــويٍّ أُعاشــرُهُ[٧٥]

وأجلـــس وحـــدي للعبـــادة آمنـــاً
أُقــرّ لعينـــي مـــن جَليــس أُحـــاذره

---

(٧٣) الفلس (بفتح الفاء): أصغر وحدة نقدية في الزمن القديم.

(٧٤) الورى: الكائنات أو البشر حصراً.

(٧٥) الغويّ: الضال.

## أهل الزمان

كــن ســاكنا فــي ذا الزمــان بســيره
وعـن الـورى كـن راهبـا فـي ديـره[٧٦]

واغســل يديـك مــن الزمــان وأهلــه
واحــذر مودتــهم تنــل مــن خـــيره

إنــي اطلعــت فلـم أجـد لــي صاحبـا
أصحبه فـي ذا الدهـر أو فـي غـيره

فــــتركت أســـفلهم لكـــثرة شــــره
وتركـــتُ أعلاهـــم لقلـــةِ خـــيرهِ

## القليل والكثير

وأكثِرْ مـن الإخـوان مـا اسطعت، إنـهمُ
بُطـونٌ إذا اسـتنجدْتَهُمْ وظـهورُ[٧٧]

وليــس كثــيراً ألــفُ خـــلٍّ لعـــاقلٍ
وإن عـــــدوّاً واحـــــداً لكثـــــيرُ

---

(٧٦) لئن صح أن هـذه الأبيـات للشـافعي، فإنـها تنطـوي علـى مفارقـة، فـالرجل الـذي ينصحـك بالسكون لم يكن ساكناً قط.

(٧٧) ثمة فرق بين فحوى هذين البيتين وفحوى الأبيات السابقة. فههنا يتبدى الأمر وكـأن الشـاعر قد هدم الموقف السابق برمته. فكيف يُحَلُّ هذا الإشكال؟

## الخسران

سَـــأطلبُ علمـــاً أو أمـــوتُ ببلـــدةٍ
يقلُّ بـها هطـلُ الدمـوعِ علـى قـبري

أليـــس مـــن الخُســـرانِ أنَّ لياليـــاً
تمرُّ بلا علمٍ وتُحسبُ مـن عمـري[٧٨]

## القناعة

تدرَّعْـــتُ ثوبـــاً للقنـــوعِ حصينـــةً
أصونُ بها عِرضي وأجعلهُا ذُخرا[٧٩]

ولـم أحـــذر الدهـــرَ الخـؤونَ فإنمـــا
قُصــــاراه أن يرمـــي بـــيَ المـــوتَ

## الحذر

أحســـنتَ ظنــك بالأيـــام إذْ حَسُـــنَتْ
ولـم تخفْ سوءَ مـا يـأتي بـهِ القـدرُ

وســـالمتْكَ الليـــالي فـــاغتررتَ بـــها
وعنـد صفـوِ الليـالي يحـدثُ الكـدرُ

---

(٧٨) لست أعرف شاعراً تحدث عن حب المعرفة أكثر من الشافعي.

(٧٩) تدرعت: اتخذت درعاً. ـ عِرضي: سمعتي وشرفي.

(٨٠) قصاراه: أقصى مدى له.

## العاصي المستتر

لقــد أطــاعكَ مــن يُرضيــكَ ظــاهرُهُ
وقــد أجلّــكَ مــن يَعصيــكَ مســتترا

## السكوت

وجـــدت ســـكوتي متجـــرا فلزمتـــه
إذا لـم أجـد ربحــا فلســت بخاســر

## الشوق إلى مصر

لقد أصبحت نفسي تتوق إلــى مصــر
ومـن دونـها قطـع المهامـه والقفـر[81]
فــو اللـــه مـــا أدري، أللفــوز والغنـــى
أســاق إليـها، أم أســاق إلــى القــبر

## الكسوف للشمس

أمــا تــرى البحــر تعلـو فوقــه جيــف
وتســـتقر بـــأقصى قاعـــه الـــدرر
وفـــي الســـماء نجـــوم لا عـــداد لـــها
وليـس يكسـف إلا الشـمس والقمـر

---

(٨١) المهامه: الصحارى لا ماء فيها.

### الأيام قهر

وما كنتُ راضٍ من زماني بما ترى
ولكنني راضٍ بما حكم الدهرُ
فإن كانتِ الأيامُ خانتْ عهودَنا
فإني بها راضٍ، ولكنها قهر

## حرف السين

### العلم

العلمُ مغرسُ كلِ فخرٍ فافتخر
واحذرْ يفوتُكَ فخرُ ذاكَ المغرسِ[٨٢]
واعلمْ بأن العلمَ ليس ينالُه
مَن همُّه في مأكلٍ أو ملبسِ
فلعل يوماً، إن حضرتَ بمجلسٍ
كنت الرئيسَ وفخرَ ذاكَ المجلسِ

### الأنس بالله

قلبي برحمتِكَ اللهم ذو أُنُسٍ
في السر والجهر والإصباح والغلس
ما تقلبت في نومي وفي سنتي
إلا وذكرُكَ بين النفْس والنَفَس[٨٣]

---

(٨٢) المغرس: المنبت، أو مكان الغرس.

## المنفيُّ بين الناس

صديــقٌ ليــس ينفــعُ يــومَ بــؤسٍ
قريــبٌ مــن عــدوٍّ فــي القيــاسِ[٨٤]

عمــرتُ الدهــرَ ملتمســاً بجــهدي
أخــا ثقــةٍ، فألــهاني التماسِــي[٨٥]

تنكــرتِ البــلادُ ومــن عليــها
كــأن أُناسَــها ليســوا بنــاسِ

## كرامة الشيب

إحفــظْ لشــيبِك مــن عيــبٍ يُدنِّسُــهُ
إن البيــاضَ قليــلُ الحمــلِ للدنــس

تبغــي النجــاةَ ولــم تسَــلُكْ طريقتَــها
إن السـفينة لا تجــري علــى اليبــسِ

يــومَ القيامــةِ لا مــالٌ ولا ولــدٌ
وضمــةُ القــبرِ تُنســي ليلــةُ العــرسِ

---

(٨٣) السِّنه (بكسر السين): درجة من درجات النوم.

(٨٤) القياس: التماثل أو التشابه.

(٨٥) أنفق الشاعر عمره يبحث عن صديق بجهده كله، ولكنه باء بالإخفاق. لقد لاحظ أحد الفلاسفة المحدثين أن صفات العبقرية في أي فرد كفيلة بأن تحرمه من الأصدقاء، وكلما أوغل في العبقرية أمعن الناس في نفيهم له.

## حرف الصاد

### العلم نور الله

شـكوتُ إلـى وكيـعٍ سـوءَ حِفظـي
فأرشـدني إلـى تـركِ المعـاصي[٨٦]
وأخـبرني بـأن العلـمَ نـورٌ
ونـورُ اللـهِ لا يُـهدى لعـاصي

## حرف الضاد

### استرداد الهِبات

إذا لـم تجـودوا والأُمـورُ بكـمْ تمضـي
وقـد ملكتْ أيديكمُ البسـطَ والقبضـا
فمـاذا يُرجّـى منكـمُ، إن عُزلتـمُ
وعضّتكـمُ الدنيـا بأنيابـها عضّـا
ستسـترجع الأيـام مـا وهبتكـمُ
ومـن عـادهِ الأيـام تسـترجع القرضـا

---

(٨٦) وكيع: هو وكيع بن الجراح الرؤاسي، ولد في الكوفة وتوفي فيها سنة ١٩٧ هـ. وربما كان من أساتذة الشافعي أو من أصدقائه. وهو مشهور بروايته للأحاديث النبوية.

(٨٧) البسط والقبض كناية عن الحل والربط، أي عن التحكم في الشؤون العامة.

## استرضاء المجافي

لسْـــتُ ممـــن إذا جفـــاه أخـــوه
أظــهرَ الــذمَّ أو تتــاولَ عِرضـــا[٨٨]
بـــل إذا صـــاحبي بـــدا لـــي جفـــاهُ
عـــدتُ بـــالوُدّ والوصـــالِ لـــيرضى

## إدبار القلب

أَرى كـلَ مـــن أصفيتُـــهُ الـــوُدّ مُقبـــلاً
علـيَّ بوجـه وهـو بـالقلب مُعْـرِضُ[٨٩]
بليـــت كثـــيرا مـــن أنـــاس صحبتـــهم
فمـــا منـــهم إلا حســـود ومبغـــض

---

(٨٨) الجفا أو الجفاء: قطع الصلة نتيجة لخلاف.

(٨٩) الوجه مقبل والقلب مدبر، هذا هو جزاء الود الصافي. وهذه هي خلاصة البيت. لقد أكد شوبنهور أن العبقري محروم من نعمة الصداقة، وأنه لا محيد له عن مكابدة شقاء الوحدة والعزلة.

## حرف العين

### زكاة الجاه

وجبـت علــي زكـاة مـا ملكـت يــدي
وزكـــاةُ جَـــاهي أن أُعِـــينَ وأشـــفعا
فــإذا سُــئلتَ فجُــدْ، وإن لــم تســتطعْ
فاجـــهدْ بجـــهدِكَ كلِـــهِ أن تنفعـــا

### أطع من تُحب

تعصـــى الإلـــهَ وأنـــت تُظـــهرُ حُبَّـــهُ
هـــذا محـــالٌ فـــي القيـــاس بديـــع
لـــو كـــان حبُّـــك صادقـــاً لأطعتـــهُ
إن المحـــبَّ لمـــن يُحـــبّ مطيـــع

### العاقل الورع

المـــرءُ إن كـــان عـــاقلاً ورعـــاً
أشـغلهُ عـن عيـوبِ غـيرهِ ورعُـهْ[٩٠]
كمـــا العليـــلُ الســـقيمُ أشـــغلهُ
عـن وجـعِ النـاسِ كلِّـهِمْ وجعُـهْ

---

(٩٠) الورع: اجتناب الحرام والشر والفساد.

# حرف الفاء

## لا وصول إلى سعاد

كيـف الوصـولُ إلـى سـعادَ ودونَـها
قُلَـلُ الجبـال ودونـهنّ حُتـوفُ
والرِّجـلُ حافيـةٌ، ولا لـي مركـبٌ
والكـفُّ صِفـرٌ والطريـقُ مخـوفُ

## الحياة الصداقة

إذا المـرءُ لا يرعـاكَ إلا تكلُّفـا
فدعْـه ولا تُكـثِرْ عليـه التأسـفا
فمـا كـلُّ مـن تـهواهُ يـهواكَ قلبُـهُ
ولا كـلُ مـن صافيْتَـهُ لـكَ قـد صفـا
إذا لـم يكـن صفـوُ الـوِداد طبيعـةً
فـلا خـير فـي ودٍّ يجـيءُ تكلفـا
سـلام علـى الدنيـا إذا لـم يكـن بـها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا

## العلم

العلم يرفع بيتا لا عماد له
والجـهل يـهدم بيـت العـز والشـرف

# حرف القاف

## آداب السفر

إذارافقــــتَ فـــــي الأســـــفارِ قومـــــاً
فكنْ لـهُمُ كـذي الرحـمِ الشـفيقِ[٩١]
فــــإن تــــأخذْ بعثرتِـــــهِمْ يَقلّـــــوا
وتبقـى فـي الزمـانِ بــلا صديـقِ[٩٢]

## الغريب

إن الغريــــبَ لـــــه مخافـــــةُ ســـــارقٍ
وخضـــــوعُ مديـــــونٍ وذلِـــــةُ موثـــــقِ
فــــإذا تذكـــــرَ أهلَـــــه وبـــــلادَه
ففـــؤادُهُ كجنـــاحِ طـــيرٍ خـــــافقِ

## ارحل

إرحـلْ بنفسِـكَ عـن أرضٍ تضـامُ بــها
ولا تكن مـن فـراقِ الأهـلِ فـي حُـرَقِ
فـالكحلُ نـوعٌ مـن الأحجـارِ تنظـرُهُ
فـي أرضِـهِ وهـو مرمـيٌّ علـى الطُّـرُقِ
لمـــا تغـــرّب حـــاز الفضـــلَ أجمَعَـــهُ
فصـار يُحمـلُ بـين الجفـن والحـدق

---

(٩١) ذو الرحم: القريب.

(٩٢) عثرتهم: يقصد زلتهم أو إساءتهم.

## أخلاق

وتركـــي مواســـاةَ الأخـــلاءِ بـــالذي
حَوَتْـهُ يـدي ظلـمٌ لـهمْ وعُقـوقُ[٩٣]

وإنـــي لأســـتحيي مـــن اللـــه أن أرى
مجـالَ اتسـاعٍ والصديـقُ مُضيـقُ[٩٤]

## ألذُّ الأشياء

ســـهري لتنقيـــحِ العلـــومِ ألـــذُّ لـــي
مـن وصـلِ غانيـة وطيـب عنـاقِ[٩٥]

وألـــذُّ مـــن نقـــرِ الفتـــاةِ لِدُفِّـــها
نقـري لأُلقـي الرمـلَ عـن أوراقـي

وأبيـــتُ ســـهرانَ الدُّجـــى وتبيتُـــهُ
نومـاً وتبغـي بعـد ذاكَ لحـاقي[٩٦]

---

(٩٣) العقوق: التنكر للوالدين. واستعاره الشاعر كناية عن التنكر للأصدقاء. ـ الذي حوته يدي: المال.

(٩٤) أستحيي: أخجل. ـ مُضيق (بضم الميم): في حال الشدة والضيق بسبب الفقر.

(٩٥) الغانية: المرأة استغنت بجمالها عن الزينة.

(٩٦) الدُّجى: الظلام.

## احرق شوكهم

لـم يبـقَ فـي النـاسِ إلا المكـرُ والملـقُ
شـوك إذا لُمسـوا، زهـر إذا رُمقـوا[٩٧]

فـــإن دعتـــك ضـــرورات لعشـــرتهم
فكـن جحيمـاً لعـل الشـوكَ يحـترق

## السر

إذا المـــرءُ أفشـــى ســـرَّه بلســـانِهِ
ولامَ عليـــه غـــيرَه فـــهو أحمـــقُ

إذا ضـاق صـدرُ المـرءِ عـن سـرِّ نفسـِه
فصـدرُ الـذي يُسْـتَوْدَعُ السـرَّ أضيـق

---

(٩٧) المكر: إضمار الشر. ــ الملق: المداهنة أو التزلف.

لــو كــان بــالحِيَلِ الغنــى لوجدتنـــي
بنجــوم أقطـــار الســـماء تعلقـــي[٩٨]

لكــنَّ مــن رُزق الحِجــى حُــرم الغنـــى
ضِـــدَّان مفترقـــان أيَّ تَفُـــرّقِ[٩٩]

وأحـــقُّ خَلْـــقِ اللـــه بالـــهمّ امـــرؤ
ذو همـــة يُبْلـــى بـــرزقٍ ضيّـــق

ومــن الدليــل علــى القضــاء وحكمــه
بؤسُ اللبيــبِ وطيــبُ عيــشِ الأحمـق

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

(٩٨) أقطار السماء: جوانبها.

(٩٩) الحِجى: العقل. وربما كان الحِجى اسماً للعقل حين يقرع الحجة بالحجة. وهو النهى عندما ينهاك عن الشر. وهو العقل حينما يعقل الحقائق، أو يدركها.

(١٠٠) اللبيب: ذو اللب، واللب هو العقل. فكأنما العقل لب الإنسان والجسد قشوره، تماماً كما هو حال الفواكه والثمار.

# حرف الكاف

## الشقاوة

ومـــــن الشـــــقاوةِ أن تحـــــبَّ
ومـــن تُحـــبُّ يُحـــبَّ غـــيرَكْ

أو أن تريـــــدَ الخـــــيرَ لـــــلإ
نســانِ وهـــو يريـــدُ ضـــيْرك[(١٠١)]

## القناعة رأس الغنى

رأيـــتُ القناعـــةَ رأسَ الغنـــى
فصِـــرتُ بأذيالـــها مُمْتَسِـــكْ

فـــلا ذا يرانـــي علـــى بابـــه
ولا ذا يرانـــي بـــه منـــهمكْ[(١٠٢)]

فصـــرتُ غنيّـــاً بـــلا درهـــمٍ
أمـــرُّ علـــى النـــاس شِـبْهَ الملِـــكْ

---

(١٠١) الضير: الضرر.

(١٠٢) منهمك: شديد الاهتمام.

## حرف اللام

### نُدرة الأحرار

سـأَلتُ النـاسَ عـن خـلٍّ وفـيٍّ
فقـالوا مـا إلـى هـذا سـبيلُ[١٠٣]
تمسّـكْ، إن ظفـرتَ بذيـلِ حُـرٍّ
فـإن الحـر فـي الدنيـا قليـلُ

### نقص عقلي

كلمـا أدبنـي الدهـر
أرانـي نقـص عقلـي
وإذا مـا ازددت علمـا
زادنـي علمـا بجـهلي

### نفسي ومالي

أرى نفسـي تتـوق إلـى أمـور
يقصـر دون مبلغـهن مـالي
فنفسـي لا تطـاوعني ببخـل
ومـالي لا يبلغنـي فعـالي

---

(١٠٣) الخل: الخليل، أي الصديق.

## الإخوان

صـن النفـس واحملـها علـى مـا يزينـها
تعـش سـالما والقـول فيـك جميـل
ولا خـــير فـــي ود امـــرىء متلـــون
إذا الريـح مـالت مـال حيـث تميـل
ومــا أكــثر الإخــوان حـــين تعدهـــم
ولكنــهم فـــي النائبـــات قليـــل(١٠٤)

## تعلَّمْ

تعلَّـــمْ، فليـــس المـــرءُ يولـــدُ عالمـــاً
وليـس أخـو علـمٍ كمـن هـو جـاهلُ
وإن كبـــيرَ القـــومِ لا علـــمَ عنـــدَه
صغيرٌ، إذا التفّتْ عليه الجحـافلُ(١٠٥)
وإن صغـــير القـــوم إن كـــان عالمـــاً
كبـــير إذا رُدَّت إليـــه المحـــافل(١٠٦)

---

(١٠٤) النائبات: المصائب.

(١٠٥) الجحافل: الجيوش الجرارة.

(١٠٦) المحافل: جمع محفل، والمحفل جمع من الناس. وقصد الشاعر بها القضايا والمشاكل.

### الملوك

إن الملـــوكَ بـــلاءٌ حيثُمـــا حلُّـــوا
فـــلا يكـــن لـــكَ فـــي أبوابِـــهمْ ظِـــلَّ

مـــاذا تؤمّـــلُ مـــن قـــومٍ إذا غضبـــوا
جـــاروا عليـــك وإن أرضيتـــهم ملّـــوا

فاســـتغنِ باللـــهِ عـــن أبوابِـــهم كرمـــاً
إن الوُقـــوفَ علـــى أبوابِـــهم ذُلَّ

### التفرغ للعلم

لا يـــدركُ الحكمـــة مـــن عُمُـــرُهُ
يكـــدحُ فـــي مصلحـــةِ الأهـــلِ[107]

ولا ينـــال العلـــم إلا فتـــى
خـــال مـــن الأعمـــال والشُّـــغلِ

لـــو أنَّ لقمـــان الحكيـــمَ الـــذي
ســـارتْ بـــه الرُّكبـــانُ بـــالفضل[108]

بُلـــيَ بفقـــرٍ وعيـــالٍ لمـــا
فـــرق بـــين التـــبن والبقـــل

---

(١٠٧) يكدح: يعمل بمشقة.

(١٠٨) الركبان: المسافرون.

## الفعل المنحول

المرءُ يحظى ثم يعلو ذكرُهُ
حتى يُزيَّن بالذي لم يفعلِ[109]

وترى الشقيَّ، إذا تكامل عيبُه
يشقى ويُنْحَلُ كلَّ ما لم يعملِ[110]

## لا لون للهم

لم يدرِ طعمَ الفقرِ من هو في غنًى
ومُصَحَّحُ الأعضاءِ ليس كمن بُلي

والناسُ جمعاً عند كلٍ كفوُهُ
والهمُّ مفترقٌ، وما أحدٌ خَلي[111]

لو سوّد الهمُّ الملابس لم تجدْ
بيضَ الثياب على امرىء في محفل

---

(١٠٩) يحظى: أي يصبح ذا حظ، أو ينجح.

(١١٠) يُنحَل: أي يُنسب إليه دون حق.

(١١١) كفوه: كفايته.

(١١٢) المحفل: جمع من الناس.

## الجهد

بقـــدرِ الكـــدِّ تُكتســـبُ المعـــالي
ومـن طلـب العُـلا سـهر الليـالي[113]

ومـــن رام العُـــلا مـــن غـــير كـــدٍّ
أضـــاعَ العمـــرَ فـــي طلـــبِ المُحـــالِ

## أهون الشرّين

ذُلُّ الحيــــاةِ وهــــولُ الممــــاتِ
كُـــلا أراه طعامــــاً وبيــــلا[114]

فـــإن لـــم يكـــن غـــيرُ إحداهمـــا
فسـيرٌ إلـى المـوتِ سـيراً جميـلا

## الناس

النــــاسُ داءٌ دفــــين لا دواءَ لـــــه
والعقلُ قد حار فيهمْ فهو منذهلُ[115]

لقــد تحــيرتُ فــي أمــري وأمرهــمُ
لا بـارك اللــهُ فيــهمْ، كلــهمْ سـفَلُ

---

(١١٣) الكد: بذل الجهد الكبير. (ذهبت الفلسفة الرواقية إلى أن بذل الجهد هو الخير الأسمى).

(١١٤) الهول: الرعب.

(١١٥) لا أظن أن الشافعي هو من قال هذين البيتين. فربما نحله بعض الناس ما لم يقل.

## حرف الميم

### أُسْلُكْ مع العلم

مع العلم فاسْلُكْ حيثما سلك العلم
وعنهُ فسَائلْ كلَّ من عنده فهمُ

فإني رأيتُ الجهلَ يُزري بأهلِهِ
وذو العلم في الأقوام يرفعُهُ العلمُ[116]

وأيُّ رجاءٍ في امرىء شاب رأسُهُ
وأفنى شباباً وهو مستعجمٌ فَدمُ[117]

### العِلم كرامة

رأيت العلمَ صاحبُهُ كريمٌ
ولو ولدتْهُ آباءٌ لئامُ

وليس يزالُ يرفعُهُ إلى أن
يُعظِّمَ أمرَهُ القومُ الكرامُ

ويتّبعونهُ في كل حال
كراعي الضأن تتبعه السَّوامُ

---

(١١٦) يُزري بأهله: يُهينُهُم.

(١١٧) مستعجم: لا يستطيع أن يتكلم. والمقصود أنه لا يستطيع أن يتكلم كلام العلماء. ـ فدم (بفتح فسكون): العاجز عن النطق، أو من ينطق بصعوبة.

## المثقف لا ينتهز

أرى النـاسَ مـن دانـاهمُ هـان عندَهـمُ
ومـن أكرمتْـهُ عـزةُ النفـس أُكرمـا[118]
ولـم أقـضِ حـق العلـمِ إن كـان كلمـا
بـــدا طمـــع صيّرتُـــهُ لـــي سُـــلما

## الجود في الفقر

أجـــود بموجـــود ولـــو بـــت طاويـــا
على الجوع كشحا والحشا يتـألم[119]
وأظـهر أسـباب الغنـى بـين رفقتـي
لتخفـــاهم حـــالي، وإنـــي لمعـــدم
وبينـــي وبـــين اللـــه أشـــكو فـــاقتي
حقيقـا، فـإن اللـه بالحـال أعلـم[120]

---

(١١٨) داناهم: اقترب منهم. قرأت هـذا البيت الأول منسـوبا إلـى القـاضي الجرجـاني، صـاحب كتاب (الوساطة).

(١١٩) الكشح: الخصر، وأراد به البطن.

(١٢٠) الفاقة: العوز والفقر.

## الزنادَين

عُفّـوا تعـفَّ نسـاؤكم فـي المَحـرمِ
وتجنّبـوا مـا لا يليـق بمسـلمِ[١٢١]

إن الزّنـادَينُّ، فـإن أقرضتَـهُ
كـان الوفـا مـن أهـل بيتـكِ فـاعلمِ

مَـنْ يَـزنِ يُـزنَ بـه، ولـو بجـداره
إن كنـتَ، يـا هـذا، لبيبـاً فافـهمِ[١٢٢]

## شراب الأُنس

بموقـفِ ذُلـي دون عزّتـك العظمـى
بمخفـيِّ سِـرٍّ لا أُحيـطُ بـه علمـا

بعـهد قديـم مـن (ألسـتُ بربّكـم؟)
بمن كان مجهولاً فعُرِّف بالأسـما[١٢٣]

أذقنـا شـرابَ الأُنس، يـا من إذا سـقى
نجيّاً شـراباً لا يضـام ولا يظمـا[١٢٤]

---

(١٢١) المحرم (بفتح فسكون ففتح): الحرام.

(١٢٢) اللبيب: ذو اللب، أو العاقل.

(١٢٣) (ألست بربكم؟): هذا سؤال وجهه الله سبحانه للبشر يوم كانوا في عالم الذر، فقالوا: (بلى) أو هكذا جاء في الآية /١٧٢/ من سورة الأعراف.

(١٢٤) النجيّ (بفتح فجر فياء مشددة): هو من يناجي الله سبحانه وتعالى. أغلب ظني أن هذه الأبيات لشاعر صوفي. فهي لا تخفى على من عرف مذهب الصوفية. وقد أثبتّها هنا لأن لها نكهة خاصة.

# حرف النون

## غزة

وإنـــي لمشـــتاقٌ إلـــى أرضِ غـــزةٍ
وإن خــانني بعـد التفـرق كتمــاني

سـقى اللـهُ أرضـاً لـو ظفَـرتُ بتربـها
كحلتُ بـه مـن شـدةِ الشـوقِ أجفـاني

## غاية العلم الأخلاق

إذا لـم يـزدْ علـمُ الفتـى قلبَـهُ هـدى
وسـيرتَهُ عـدلاً وأخلاقَـهُ حُسْـنا

فبشّـــره أن اللـــه أولاهُ نعمـــةً
يُسَاءُ بها، مثل الـذي يعبـد الوَثْنـا[١٢٥]

## نحن عيب الزمان

نعيـــبُ زمانَنـــا والعيـــبُ فينـــا
ومـــا لزمانِنـــا عيـــبٌ ســـوانا

ونـــهجو ذا الزمـــانَ بغـــير ذنـــبٍ
ولـــو نطـــق الزمـــانُ لنـــا هجانـــا

وليـــس الذئـــبُ يـــأكلُ لحـــم ذئـــبٍ
ويـــأكل بعضُنـــا بعضـــاً عِيانـــا[١٢٦]

---

(١٢٥) الوثن هو الصنم. وقد أجبر الشاعر على تسكين الثاء ليستقيم الوزن الشعري.

## القناعة كرامة

قنعـــتُ بـــالقوتِ مـــن زمـــاني
وصُنْـــتُ نفســـي عـــن الـــهوانِ

خوفـــاً مـــن النـــاس أن يقولـــوا
فضـــلُ فـــلانٍ علـــى فـــلانِ

مـــن كنـــتُ عـــن مالـــه غنيّـــاً
فـــلا أُبـــالي إذا جفـــاني

## سوء الظن من الذكاء

لا يكـــنْ ظنُّـــك إلا ســـيّئاً
إن سـوءَ الظـنِّ مـن أقـوى الفِطَـن[١٢٧]

مـــا رمـــى الإنســـان فـــي مَهْلكـــةٍ
غـيرُ حُسـنِ الظـنِ والقـولُ الحسـن

(١٢٦) عيانا: أي علنا.

(١٢٧) هذا هو مبدأ الشك الفلسفي.

## أخلاق الإمام

ولــو تنــــازُعني كفّـــي إلـــى خُلُـــقٍ
يُــزري لقلــتُ لــها: أَلقيــهِ أو بينــي
خيمـــي كريـــمٌ، ونفســـي لا يُحدثنـــي
أن الإلـــهَ بـــلا رزقٍ يُخلينـــي[١٢٨]
بـل مـا اشـتريت بمـالي قـطُّ محمـدةً
إلا تيقنــت أنــي غــيرُ مغبــون[١٢٩]
ولا دُعيــتُ إلـــى مجـــدٍ ومكرُمـــةٍ
إلا أجبـــتُ: ألا مـــن ينـــاديني[١٣٠]

## الهموم

ســــهرتْ أَعـــينٌ، ونــــامتْ عيـــونُ
فـــي أمـــور تكـــون أو لا تكـــونُ
فـادرأ الـهمَّ مـا اسـتطعتَ عـن النفسِ
فحِملانُـــكَ الـــهمومَ جنـــونُ
إن ربّـــاً كفـــاكَ بـــالأمسِ مـــا كـــا
نَ ســـيكفيكَ فـــي غـــدٍ مـــا يكـــون

---

(١٢٨) خيمي: أصلي أو طبعي.

(١٢٩) محمدة: عمل يجلب الحمد. ـ مغبون: خاسر، أو تعرض للغش.

(١٣٠) مكرُمة: عمل كريم أو يؤسس الكرامة.

## صالح الأعمال سفن

إن للـــــــهِ عبـــــــاداً فُطُنـــــــا
تركـــوا الدنيـــا وخـــافوا الفِتنـــا

نظـــــروا فيـــــها، فلمــــا علمــــوا
أنــــها ليســــتْ لحــــيٍّ وطنـــــا

جعلوهــــــا لُجَّـــــــةً واتخــــــذوا
صــالحَ الأعمــال فيــها ســفنا(١٣١)

## للناس ألسن

إذا رُمــتَ أن تحيــا ســليماً مــن الأذى
ودينُــكَ موفــورٌ وعِرضــكَ صَيّــنُ

فــلاَ يَنطقــنْ منــكَ اللســانُ بعــورةٍ
فكلُّــكَ عــوراتٌ وللنــاسِ ألســنُ(١٣٢)

وعاشـرْ بإحسـانٍ، وسـامحْ مـن اعتـدى
ودافــعْ، ولكــن بــالتي هـــي أحســنُ

---

(١٣١) اللجة (بضم اللام): معظم الماء. وكنّى بها الشاعر عن البحر.

(١٣٢) العورة: السوأة أو المثلبة.

## الطمع هوان

أمـــتُّ مطـــامعي فـــأرحتُ نفســـي
فـإن النفــسَ مــا طمعــتْ تــهونُ[١٣٣]

وأحييـــتُ القُنـــوعَ، وكـــان ميتـــاً
ففـــي إحيائـــه عِـــرضٌ مصـــونُ[١٣٤]

إذا طمـــعٌ يحـــلُ بقلـــبِ عبـــدٍ
علتْـــهُ مهانـــةٌ وعـــلاهُ هُـــونُ[١٣٥]

## موت أحبتي

ســـأصبر للحمـــامِ وقـــد أتـــاني
وإلا فـــهو آتٍ بعـــد حـــينِ[١٣٦]

وإن أســـلم يمـــتْ قبلـــي حبيـــبٌ
ومـــوتُ أحبتـــي قبلـــي يســـوني[١٣٧]

---

(١٣٣) تهون: تصير بغير قيمة.

(١٣٤) مصون: محفوظ. ـ القنوع: القناعة.

(١٣٥) المهانة: الحقارة. ـ الهون: الهوان، وهو عدم القيمة، أو نقيض العزة.

(١٣٦) الحمام (بكسر الحاء): الموت.

(١٣٧) يسوني: أي يسوؤني، أو يزعجني كثيراً. وقد حذف الهمزة ليستقيم الوزن الشعري. إن الإمام الشافعي الذي يقاسي وحشة الاغتراب في دنيا معدنية شرسة، هو على أتم استعداد ليكابد لواعج الحزن والأسى حين يموت واحد من أحبائه، ويتمنى أن يموت قبلهم لكي لا يتجرّع الحسرة والمرارة. وفي هذا منتهى الخلق الكريم.

# حرف الهاء

## كلب في الفرات

أعـــرضْ عـــن الجـــاهلِ الســـفيهِ
فكـــلُ مـــا قـــال فـــهو فيـــهِ
مـــا ضـــرَّ بحـــرَ الفـــراتِ يومـــاً
إن خـــاض بعـــضُ الكـــلابِ فيـــهِ

## شفاعة الصالحين

أحُـــبُّ الصـــالحينَ، ولســـتُ منـــهمْ
لعلّـــي أن أنـــالَ بـــهمْ شـــفاعهْ
وأكـــره مـــن تجارتـــه المعـــاصي
ولـــو كنّـــا ســـواءً فـــي البضاعـــه

## العلم

العلـــمُ مـــن فضلِـــهِ، لمـــن خدمَـــهْ
أن يجعـــلَ النـــاسَ كلَّـــهمْ خَدمـــهْ
فمـــن حـــوى العلـــمَ ثـــم أودعَـــهُ
بجهلـــهِ غـــيرَ أهلِـــهِ ظَلمـــهْ

## الصمت والكلام

لا خـــيرَ فـــي حشـــوِ الكـــلامِ
إذا اهتديـــتَ إلـــى عيونِـــهْ

والصمـــتُ أجمـــلُ بـــالفتى
مـــن منطـــقٍ فـــي غـــير حينـــهْ

وعلـــى الفتـــى لطباعـــهِ
ســـمةٌ تلـــوحُ علـــى جبينِـــهْ[138]

## التناسب

وأنزلنـــي طـــولُ النـــوى دارَ غربـــةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امـرءاً لا أُشـاكِلُهْ[139]

أُحامقُـــهُ حتـــى يُقـــالَ: ســـجيةٌ
ولـو كـان ذا عقـلٍ لكنـتُ أُعَاقِلُـهْ[140]

## الحسود

وداويـتُ كـلَّ النـاسِ، لكـنَّ حاسـدي
مداراتـــه عَـــزّتْ وعـــزّ فعالُـــها

وكيـف يـداري المـرءُ حاسـدَ نعمـةٍ
إذا كـــان لا يرضيـــه إلا زوالُـــها

---

(١٣٨) السمة: الأمارة أو العلامة.

(١٣٩) النوى: البعاد. والمقصود هو السفر. ـ أشاكله: أُشابهه.

(١٤٠) أحامقه: أُخاطبه بحماقة كما يخاطبني. ـ سجية: طبيعة، أو صفة من صفات الطبع. ـ أعاقله: أحدثه بالعقل والحكمة كما يحدثني.

## حرف الياء

### عين الرضا

وعــينُ الرضــا عــن كـل عيــب كليلــةٌ
ولكنَّ عــينَ السُـخطِ تُبـدي المسـاويا

ولســـتُ بـــهيّابٍ لمـــن لا يـــهابُني
ولستُ أرى للمـرءِ مـا لا يـرى ليـا[142]

فــإن تــدنُ منــي، تــدنُ منـك مودتــي
وإن تنــأ عنــي، تلقنــي عنـك نائيــا

كلانـــا غنـــيٌّ عـــن أخيـــهِ حياتَـــهُ
ونحــن إذا متنــا أشــدُّ تغانيــا[143]

---

(١٤١) كليلة: ضعيفة. ـ المساوي: المساوىء وحذف الهمزة لضرورة القافية.

(١٤٢) هياب: خائف.

(١٤٣) التغاني: استغناء كل طرف عن الآخر.

# خاتمـة

لقد اصطفيت هذه المختارات، كما أسلفت في المقدمة، من عدة مصادر حديثة لديوان الشافعي. وهي في تقديري أفضل ما وجدت في تلك المصادر من شعر للإمام الشاعر، أو مما هو منسوب إليه بطريق التزوير الذي يستهوي بعض الناس فيدفعهم إلى القيام به دون رادع أو ضمير. ولعل أهم ما في الأمر أن الرجل قد تبدّى وهو يتمركز حول مجموعة صغيرة من الموضوعات التجريبية والمثالية الثابتة التي أعطاها جل جهده، أو جعل منها محوراً لنتاجه الشعري كله.

**وقد يتيسّر للمرء أن يلخص تلك الموضوعات الكبرى على النحو التالي:**

أولاً: غربة الشاعر عن الناس وكذلك عن الزمن الذي عاش فيه، ثم عن سلطات عصره وملوكه الذين يكرههم كما يكره المحرّمات. فمن المؤكد أن كل رجل عظيم هو على خلاف دائم مع زمنه الذي يعيش فيه. ولكنني وجدت أن المتنبي هو أبرز من يجسد هذه البرهة، أقصد برهة الانخراط في خلاف، أو في توتر مع العصر، أو البنية الكلية للمجتمع.

ثانياً: مناقب السمات الخلقية التي يتبناها الشاعر الإمام ويدعو إليها بحرارة وصدق، ولا سيما الإيثار ومساعدة المحتاج، ثم عزة النفس وإكرامها بالشرف، وعدم السماح لأحد بأن يرى له فضلاً عليها، لأن من شأن ذلك أن يشينها أو يهينها.

ثالثاً: الصلة بالله، أو الثقة بأنه الحارس الأمين الذي سوف يكفيك هموم المستقبل مثلما كفاك هموم الماضي. وربما جاز الزعم بأن ثمة علاقة بين هذه التقوى وبين تلك الأخلاق النبيلة الآنفة الذكر. ويبدو أن ثقته بالله قد كان من شأنها أن خفّضت من حدة شعوره بالضياع والاغتراب، أو لعلها أن تكون قد أسهمت في جعله يتحمل غربته وفقره وسوء أحواله. والأهم من ذلك أن هذه

الصلة التي توجهه إلى ما يتجاوز الكون تملك من الطاقة ما يكفي لكي يلحم العلو بالتجربة في كل قيمة من القيم التي يتبناها الشاعر.

رابعاً: الالتزام الدائم بمبدأ القناعة الذي هو مبدأ الزهد المعتدل، والذي قد يفضي بصاحبه إلى هدأة البال، أو إلى التخفيض من قلق النفس وتوترها الشديد. ولكن ما هو ناصع تمام النصوع في هذه الأشعار أن الرجل يعمد إلى تبني مبدأ القناعة ابتغاء صيانة شخصيته عما يدنسها، أو لكي يحفظ كرامته وينأى بها عن ذل السؤال والاستجداء.

خامساً: حب المعرفة وحث الناس عليها أو على السعي من أجل حيازتها والتقدم فيها حتى نهاية الشوط، وذلك لأنها تؤدي إلى ترسيخ الماهية الإنسانية في الكائن البشري. وربما لاحظ قارئ الديوان أن الشاعر يرى الإنسان بغير معرفة كائناً شديد القرب من الحيوان، أو هو منقوص الهوية ومثلوب الشخصية والكرامة.

سادساً: السفر وفوائده ونتائجه الإيجابية وقدرته على تجديد روح الإنسان وتخليصها من الرهل، أو من التأسن في مستنقع السكون الراكد البليد، حتى لكأن السفر هو القوة التي تضمن نبض الفؤاد.

وربما فات الإمام الطيب النبيل أن الاغتراب ضريبة العبقرية، بل ضريبتها الحتمية الباهظة التي لا محيد عن تأديتها بتاتاً، وأن ذوي القامات الباذخة لا أصدقاء لهم إلا عرضاً، أو على ندرة فقط، وذلك لأنهم بغير أنداد يوازونهم في الارتفاع أو في الشموخ، إذ لا صداقة على الأصالة إلا بين أنداد وحسب. وحتى هذا القول بصداقة الأنداد لا يصح إلا إذا كانت الصداقة نفسها واقعة ممكنة في عالم محكوم بالأنانيات والنزعات الرامية إلى الحيازة والمتعة والتسلط والنفوذ، بل قل في عالم يستوطنه نسق من البؤس والشر والعذاب الدائم المقيم، ولا سيما في المدن الكبيرة، حيث الغلبة للمظاهر على الجواهر، أو

((حيث تتكدس الثروة ويتعفن البشر))، كما يقول غولد سمث، الشاعر الإيرلندي، في قصيدة له عنوانها (القرية المهجورة).

ولقد شكا امرؤ القيس في الزمن الجاهلي، أو قبل الشافعي بكثير، من سرعة تبدل الأصدقاء، بل حتى من خيانتهم له باستمرار. وهذا مما يؤكد بكل جزم أن العزلة هي قدر العبقري المحتوم. فها هو ذا يقول في الرائية الكبرى، التي هي قصيدة اغتراب سداة ولحمة، والتي أحسبها واحدة من عيون القصائد العظمى في تاريخ الشعر البشري بأسره، والتي أسهمت أيما إسهام في تأسيس الشعر العربي منذ زمنها وحتى زمننا الراهن:

إذا قلُت هذا صاحب قد رضيتُهُ
وقرت به العينان بُدّلتُ آخَرا
كذلك جدي، ما أُصاحبُ صاحباً
من الناس إلا خانني وتغيّرا

أما المتنبي فقد راح يتمنى المنية حين بلغ به الاغتراب حداً لا يطاق. وإليك الشرط الذي دفع أبا الطيب إلى ذلك التمني:

تمنيتُها لما تمنيتُ أن أرى
صديقاً، فأعيا، أو عدوّاً مداجيا

ولعل أنكى ما في الأمر أن الرجل لم يصادف عدواً يجامل أو يداهن. حتى هذا العزاء التافه لا وجود له في عالم أبي الطيب، فإلى أي مدى كان ذلك الشاعر مغترباً؟

إنه، إذن، يعيش محاطاً بالفراغ من جميع الجهات حتى لكأنه في قفر موحش لا بشر فيه ولا حياة. فراغ وحسب، هذا هو كل شيء، وهذا هو أقصى مدى يستطيع الاغتراب أن يصل إليه.

بيد أن منظومة القيم النبيلة التي يتبناها الشاعر الإمام، والتي تنبع كلها من القيمة المركزية الجلى التي أدعوها الطيبة، هي عناصر جوهرية في صميم النسق الأخلاقي المثالي للجنس البشري كله، وفي كل زمان ومكان. فهو حين يدعو إلى القناعة إنما يسعى إلى شكم ذلك الاندفاع الهمجي نحو الحيازة التي هي أصل كبير من أُصول الشر، بل من أصول المذبحة العالمية المستمرة في دنيا لا خلاص لها من انشطارها السرمدي الكئيب. ولا ريب في أن أخلاق النبل والنظافة التي يحاول الشاعر أن يرسخها في هذه الحفنة الصغيرة من الأشعار، هي محاولة جادة للعلو، أو لتجاوز هذا الانشطار المرير الذي لا يتجاوزه إلا أصحاب النفوس المطهمة الهيفاء. وربما أقنعتك هذه القصائد الصغيرة الحجم، كما أقنعتني، بأن الشافعي روح طاهرة بريئة ونادرة النظير في تاريخ الثقافة العربية بأسرها.

# الفهرس